الحُبُّ في يناير

نورهان عبدالله

obeikandl.com

اسم الكتاب : الحب في يناير
المؤلف : نورهان عبد الله
تصميم الغلاف : محمد عبد القوي مصيلحي
تنسيق داخلي : سارة صلاح
رقم الإيداع : 2014 / 19256
الترقيم الدولي : 978 _977_6471_ 32 _0
رقم الطبعة : الطبعة الأولى / 2015

مدير النشر	مدير التوزيع
فتحي المزين	منال المزين
01282288058	01270982908

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والأراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

العنوان : 6 شارع التحرير بالدقي، بجوار محطة مترو البحوث، الدور 19، شقة رقم2002.
البريدالإلكتروني :
layanpub@gmail.coml-layanpub@yahoo.com

obeikanal.com

الحب في يناير

نورهان عبد الله

رواية

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى أبي وأمي وأشِقَّائِي وأصدقائي . .

إلى شهداء 25 يناير . .

إلى وَطَني . .

obeikandl.com

obeikandl.com

في يومٍ عاشقٍ للحياة و في ساعةٍ صباحيةٍ لَمْ تشهدها رحلة العذاب الأبدية، ولم تزلْ معلَّقةً على قيودِ يدِها مستسلمةً لندائه، أعلم أنّكم تتسائلون من هي و لماذا تقولين ذلك؟

لنْ أجيبَكم، فروايتها ستشعل مأساةً بقلوبكم، لتنتظروا نهايتها وترتموا على الأرض من البكاء. أتدرون ما دافعها لقتلِه؟ ربما السبب في حبها لبلدها أو كرهها له، لا أدري.

أأنتم حائرون؟ أم أنكم تنتظرون لحظة الضعف التي تمر بها لتأخذوا بثأركم منها؟

سأعلنها لكم اليوم، سأحدثكم عن قصتها..

في صباحٍ باكرٍ معهودٍ تتألّق فيه البلابل على شجرة الكافور الخضراء بأوراقها المنسدلة من أعلى، وألحان أصواتها العذبة، استلقت "رجاء"على كرسيّ بأقرب عربة تحملها إلى مكان العمل، اقترحت أمها بألا تذهب إلى هناك، لكنها صمَّمَت على الذهاب.

وبالقرب من محلّ عملها، من مجلس الشعب، الشوارع فارغة بعد أن كانت عاجّةً بالناس، ليس غريبًا على شارعها، فقد اعتاد الصمت والهدوء مع أوراق البوتسيانة، تابعت السّيْر على قدمها التي تهالكت من كثرة المشيْ.

وقفت "رجاء" أمام المحل فاصطدمت بصاحبه، إنه رجل عجوز يدعى "شوقي عرفة "، يشبه في هيئته الغربيّين لدرجة أنك لا تعرفه من وسط مليون أجنبيّ، خصلات الشَّعر الرمادية منسابةً ومتساويةً على الجانبين، يتخلله في الوسط صلعٌ خفيفٌ، ومعطفه الأزرق وبأسفله بنطال جينز

أزرق اللون، تناسق ألوان نفتقده، وبيده جريدته الصباحية يطلعنا فيها على أهم الأحداث في ذلك الوقت. سألَتْه"رجاء" عن ماذا يجري لنا، فتنهد وابتسم ابتسامةً خانقةً ثم تحولت إلى سعادة تملؤه من ما يراه وقال:

- زين العابدين بن علي وتونس أحزناني كثيرًا... كيف لهذا الشعب أن يتهكم على رئيسه؟!

وقاطعه آخر، "مرسي العادل".. يسمونه "عادل" لأنه كثيرًا تصادفهم معه مواقف ولا يقول إلا كلمة حق، يعمل حارسًا لجراج عقارٍ يبعد عنهم بخطوات قليلة يطلقون عليه عقار"أبو وردة حمرا".

دائمًا يمشي على ساقٍ ويعرج بالأخرى بعد أن أصيب في مظاهرة أقامها محدودو الدخل لرفع الأجور، وبعد أن شعر"مرسي"بالظلم في بلده راح يستأجر كشكًا صغيرًا لبيع جرائده.

هتف بصوت عالٍ وانقلب التهريج والتعبير إلى رأي نشب بين "شوقي" صاحب المحل وبين "مرسي" كالتي نشهدها في مباريات كرة القدم.

واتَّهَمه بالانحياز للأجانب، لم يقتصر الأمر على ذلك حتى اقترب من معطفه وراح يمسكه منه قائلًا بنبرةٍ حادّةٍ:

- كيف تقول ذلك؟ أأنت يساريّ أم أنك تدعي التحضر؟ وراح يكلمه: إنها بلدك التي جئت منها، لا تعرف معنى للديمقراطية.

أخذ "مرسي"يعتدل في جلسته و "رجاء" واقفة تهدّئ بينهم، تصرخ وتتمتم بكلمات تنهي حالة النزاع، فقاطعها "مرسي" قائلًا:

- ألا تسمعين مايقوله يا آنسة "رجاء"؟!

ثم أخرج جريدته ووضعها على المكتب الذي يقترب من باب المحل وأخذ يضع يده على أنفه ويحكّها بشدة ويخبط بقدميه على الأرض، ثم جلس بالقرب من صاحب المحل وأبدى اعتذراه، وهو يشرح له ويعرض عليه صورة شابٍّ انتحر مفجّرًا نفسه أمام مجلس الشعب قائلًا:

- هل يستحق زين العابدين بن علي أن يُخْلَعَ من منصبه؟ أم نحن المصريين لا نستحق أن نقوم بمظاهرةٍ ضدّ رئيسنا؟

عدَّتْ أيام ليلٍ يليه نهار، كانت أيامًا قليلةً على الخامس والعشرين من يناير، مالها هي والحُكْم والمظاهرات! اتجهت للمحل وهي ترتب ما بداخله حتى أصابتها جزوعٌ وخدوشٌ صغيرةٌ بمعصم يدها، راحت تضمدها بقماشٍ أبيضٍ وبِلَفَّاتٍ دائريةٍ، فوجِئت بشابٍّ يحتضنها، يده تنزف دمًا، في رَيْعَان شبابه، ملامحُه بريئة، وسيم المظهر والهندام، معطفه أسود يطوّقه شالٌ فلسطينيٌّ، وخصلات شعره الأسود ناعمة.

وقفت "رجاء" مندهشةً أمامه، تُعَدّل النّقاب، لا تعلم ماذا تقول، قال لها أنّ قوات الأمن تطارده، ولا تعلم هل هذا يكفي؟ أم أنه يخبئ أمرًا ما؟ هذا ما قاله لها ثم وبشكل مفزعٍ أغلق باب المحل عليهما حتى أصبحا وحدهما، ثم كتم فمها بيده البيضاء، وقال لها بصوت منخفض:

- كادوا أن يقتلوني، لولاكِ ما نجوتُ من أيديهم.

لم يصبها إلا دهشةً عمياءَ دون أن تنطق كلمةً، ثم أخرج صندوقًا صغيرًا ليخبئَه داخل المحل، أوقفته وقالت له:

- من أنت؟ بعملك هذا ستسبب لي مشكلةً مع صاحب المحل.

- لا تقلقي، مع بداية الليل سأخرج من هنا وأحمله معي.

صرخت بصوت عالٍ:

- ماذا؟ ليل!

- هل يمكننا أن نغلق المحل حتى الليل، أو تبقي معي حتى هذه اللحظة؟

ثم سمعا أصوات ضربٍ على الباب، فخبأها خلفه حتى شعرت بضيق، قال لها:

- أنتِ وحدَك هنا؟ أم أنك منتظرة من يساعدك؟

- وضعت عينها بعينه ثم اعتدلت صارخةً بوجهه:

- من أنت؟ إنها ريم صديقتي تعمل بالمحل المجاور لي.

لم تسمع ريم أيّ إجابة، أرادت أن تطمئن على "رجاء" حتى رحلت، راحت "رجاء" تشعل النور، فوضع يده على يدها وقال بصوتٍ ناعم:

- لايصح أن تشعلي نورًا، أنا هنا أتخفى خلف أنثى تفهم وتقدر أمن الدولة.

اندهشَتْ وهى تسحب يدها سريعًا:

- "أمن الدولة"!

تجاهلت كلامه مسرعةً، تخشى على نفسها منه، فسمعتْ أصوات الطرق على باب المحل، وراحت تشعل النور، ثم أغلقته مسرعةً تختبئ خلفه، متعثرةً في الكلام، لا تعرف ماذا تقول.

ساد الصمت فتراتٍ كثيرة يتبادلان فيه النظرات ما بين الفضول والدهشة، ثم راح يقول لها:

- اتَّهَمُوني بالإرهاب.

- كيف؟ أعرف أن المظاهرة كبيرة ضد الحاكم لكنني لا أفهم في السياسة، لماذا يحتجون كذلك على الرئيس؟ هل سرق أموالهم؟

هكذا تساءَلَتْ بسذاجة بالغة، فراح وسيم يضحك قائلًا:

- رئيسُنا لا يسرق بل ينْهَب، نَهَبَ أرواحَنا وقتلنا لا مرّة بل ألف مرّة.

شعرت "رجاء" أن كلماته لغزٌ لا تفهمه، وهى لا تفهم إلا لغة التعامل مع زبائنها في أمور الشراء ليس إلا، لكنه يحدثها في أمورٍ غريبة.

عاد ينظر إليها.. شعرتْ أنه يخفي دَمْعةً تمرّ من عينه لأسفل خدّه وراحت تجلب منديلًا صغيرًا بعد أن تحسّست المكان وقالت له:

- كيف؟

- أمي من فلسطين، سمعَتْ أن فرح ابنة خالتي قريبٌ، فمنعناها من النزول والزيارة لكننا تعبنا كثيرًا لكي تصل إلى هناك على الحدود، كان السبب في دخولنا، متطوعٌ بكتيبة حماس، حاولتُ أن أذهب معها لكنهم أغلقوا المعابر، وتعرضت أمي وقتها لغارةٍ إسرائيليةٍ راحَتْ ضحيتَها، ثم تماسك قائلًا:

- لافرق بين هنا وهناك، كلنا شهداء الظلم.

عاد يتنهد ويتألم، تراه يتأوه تأوهاتٍ مخفيةٍ صامتةٍ، يعلن فيها عن رجولته، وعيناه اللتان تترقبانها كليًّا من أعلى لأسفل وأصوات الهتاف تعلو، ثم قال لها:

- أنا أريد أن تلبّي لي شيئًا.

- ما هو؟

أخرج موادًّا كيميائية تصنع في المتفجرات.

اعترضت "رجاء"، وهي تتمتم:

- إنه مجنون، لابد أن أبلغ صاحب المحل،

حاوَلَتْ في دقائق أن تستعيد أنفاسها وتلتقطها صعودًا وهبوطًا، تخشى على نفسها منه، أكثر ما يميز "رجاء" هدوؤها، لكنها بليدة، ضيقة الأفق.

راحت تنظر إليه من جديد، تطلب منه الخروج، لكن النهاية كانت الرفض، توسّلت إليه بأن يتركها وشأنها، حتى وعدته بألا تبلغ عنه أحدًا، ولن يعلم منْ يهمّه الأمر بأي شيْءٍ حدث في هذا اليوم أو أنّ شخصًا تعدّى على حدود عملها.

راح يشرح لها من جديد، يستعطف وطنيتها طلب منها قائلًا:

- كل ما أريده منكِ أن تعطي هذه الأشياء لصديقٍ لي وهو سوف يتولى المهمة، ملامحك تنطق بالوطنية، مظهرك شديد المحافظة، هيئتك، كلامك، أرجوكِ ساعديني، أنتِ ستقدّمي لمصرَ خدماتٍ كثيرة، سيُكتَبُ اسمُك على صفحات التاريخ.

أوشكت "رجاء" أن تتراجع عن موقفها تجاهه، وأن تستشعر في كلماته الصدق، وحبّ الوطن، والمسؤولية.

قالت له:

- وما الضامن؟ كيف سأخرج من هنا؟ وأنتَ بعملك هذا وضعتني تحت دائرة الشكّ والمراقبة..

- أنتِ تعملين هنا، وقد أوشك الوقت للانتهاء من عملك، لن يشكّ فيك أحد. كذلك أنتِ ترتدين النقاب وهذا سيساعدك كثيرًا بألا يتعرف أحد عليكِ.

نظرت "رجاء" إليه ثم إلى الصندوق الخشبيّ، كان مغلقًا بإحكام، لا أحد يستطيع فتحه، حاولت مرة واثنتين لكنّه منعها، شرح لها أهمية ما بداخله وإذا قامت بفتحه فسينكشف أمرها وأمره ويعود إلى المعتقلات من جديد، هذا هو "وسيم" رجل المعتقلات، لم يكن وسيم أحد رجال المقاومة في فلسطين، لكن بداياته كانت مع الجهاد الأفغاني لإسقاط الاتحاد السوفيتي، عاصر الجهاديّين كثيرًا، شعر أن موطنه الأصليّ معهم، وبعد أن عاد إلى مصر، انتهز قيام ثورة 25 يناير، شعر أنها الأمل الوحيد للانتقام من الظلم والطغيان، وأنها الفرصة الوحيدة للتخلص من النظام الحاكم لإعادة فتح المعابر بعد أن شعر أنّ إغلاقها كان سببًا في رحيل أمه.

تراجعت "رجاء" بعد أن بان اليأس على وجهه وقالت:

- سألبّي طلبك.

أخذتْ "رجاء" قرارَها وهي تعلم أنّ خطرًا ما سوف يَلْحَقها، أرادت أنْ تُنْهي حياتها بشكل يستحق أن يتذكرَه الجميع، لَمْ يخطر على بالها هذا، لكنّها شعرتْ بذلك من كلام "وسيم".

راح "وسيم" ينتفض من مكانه فرحًا، ثم وضع بجانبهما بطاريةً كهربائيةً كانت تستخدم وقت انقطاع التيار، وضعها وسط المحل، ومعها كرسيّان صغيران من الخشب العاج، جلس على واحدٍ يشرح لها، وهي على الآخر، واضعةً نصب تركيزها بكلامه.

مرّت ساعة لتدق الخامسة مساءً، خرجت من المحل هادئةً، أغلقتْ بابه الصاج، كان عتيدًا في حاجة إلى زيت تشحيم، وراحت تضغط بمعصميْ يديها الاثنين عليه فأصدر صوتًا عاليًا خشنًا، ثم فجأة انسحب إلى أسفل وكأن يدًا قويَّة قامت بذلك، فابتسمَتْ وعلمَتْ أنه "وسيم"بعد أن شعر باحتياجها إلى قوَّتِه، رفعت رِداءَها وجرَتْ مسرعةً تنظر يَمنةً ويَسرةً.

اختبأتْ خلف الأشجار، وعلى بعد مترين وجدت كمينًا للأمن.. على اليمين رجلَا شرطةٍ وعلى الشمال أمامهم ثلاث أو أربع رجال من الأمن المركزيّ، أسلحتهم مشهرة للأمام، وسط الشارع قطعة من الحديد محملة على عجلٍ متحرك، مكتوبٌ بأسفلها "أمن، ممنوع الاقتراب"

- ياللهول! كيف أتجه إلى هناك؟

هي لا تستطيع العودة إلى الخلف، تذكرت كلام "وسيم".. "لاتخافي الأمن، وإذا صادفك أحدٌ منهم لا تجعليه يشعر بخوفك"

- حسنًا.. لن أجعله يشعر بخوفي.

خرجت من خلف الأشجار وتقدمتْ بوسط الشارع، ترتدي حذاءً مهترئًا من كثرة المشي، أصبحت الآن أمامهم، لا أحد يتحدث معها، تركوها تعبر دون أيّ سؤال، ثم فجأةً سمعت صوتًا من خلفها:

- انتظري.

تابعت السيْر، لم تنظر خلفها، ثم عاود النداء:

- أقول لك انتظري، وشاور بإصبعه للأمن ليحملوها إليه، أخذوها من يدها إلى مكان قائده، ووضع عينه بعينها ليتعرف على ملامحها، يتفحص بذكائه شخصيتها ومفاتيحها، طلب منها أن ترفع النقاب لكنها رفضت، راح يصرخ بوجهها، لم تعد قادرةً على طلبه، سحبها منه جانبًا وأمر قواته أن يرفعوه بالقوة، نظرت إليه بعنف دون أن تنطق بكلمة، فسألها بخبث:

- إلى أين؟

راحت تصرخ:

- لماذا؟

- تحدثي بجدية.

فخبطها أحدهم بكتفه قائلًا:

- تحدثي بدون مجادلة.

- أنا متجهةٌ لصديقتي المريضة، تقطن بالقرب من هذا الشارع.

قام رجال الأمن بتفتيشها، كاد قلبها يقع خوفًا، الصندوق خلف الأشجار كيف ستتجة لاستعادته وقد ألقته بعيدًا عن الأمن، ارتعش جسدها، ثم راح يضع يده بالقرب من جسدها فركلته بقدمها، وراحت تجري مسرعةً، عطلها حذاؤها ورجال الأمن خلفها يحاولون الإمساك بها، خلعتْ حذاءَها حافيةً، اختبأت بعقارٍ تحت الإنشاء وقد تَرَك بُنَّاؤُه أشياءَهم تأهبًا للمظاهرات، كانت تنهج من شِدّة الجري، هربت منهم بعد فشلهم في اللحاق بها، صرخت :

- أين أنت يا أخي لتحميني من ظلم الأمن ورجالهم؟

تتفحص "رجاء" المكان، العقار ما زال تحت الإنشاء وهى تتسائل:

- ما العمل الآن؟ كيف سأخرج من هنا والأمن بالخارج؟ لن يرحموني، سيلقنوني درسًا كبيرًا، ماذا أفعل عندما يوجهون أسئلةً لي؟ ولماذا هربتُ؟

شعرت " رجاء" أنها هي التي ستعرض "وسيم" للخطر من جديد، تساءلتْ في دهشة طفلٍ صغيرٍ عن ما بداخل الصندوق، وماذا يريد "وسيم" أن يقدّم لمصر، ولماذا أمن الدولة يطاردونه؟

قررتْ "رجاء" أن تخرج من العقار وتحاول العودة للوراء بعد أن ألقتْ الصندوق جانب الشجرة ولكن بحذر، حاولت البحث عن طريقة للخروج. العقار مليءٌ بالأسمنت والجبس، وقصعة لحمل المونة، بجانبها ملابس مهكّعة لعمال البناء، راحت تنظر إليها، ترفعها واحدة تلو الأخرى فخرجت منها ذرات أسمنت وأتربة، شرعت في النزول إلى أسفل مسرعةً، حاوطت وجهها، وراحت تراقب المكان، لم تجد سائرًا بالشارع، أسرعت في المشي، ساعدها كثيرًا حذاء العامل، لونه أبيض، مريح لقدمها، المكان

طويل عليها أن تسرع، لم يتبق إلا ساعة واحدة لكي تصل بالصندوق، ثم رددت في أسى وغضب:

- ليتني لم أرك يا وسيم، أو ألبي طلبك، ماذا حدث الآن له، وماذا يحدث هناك للمحل؟

أمسكت الخوذة جيدًا، وصلت بالقرب من قصر النيل، وعلمت أنها بالشارع ذاته، فرحت كثيرًا، وقفت بجانب أحدهم على اليمين بالقرب من الرصيف.

نظرتْ جانبها، مقعدٌ خشبيٌّ، بالضبط كما وصف لها "وسيم"، ترقبتْ المكان كما حذّرها، تحترس من رجال الأمن.

- إنها السّاعة الثامنة مساءً، أين هو الرجل ذو المواصفات؟

أصعب خطوات مرت بها "رجاء" في حياتها، فجأة استند بجانبها شابٌّ في الثلاثين من عمره، وعلى جبينه زبيبة كبيرة من أثر السّجود، كانت مواصفاته قريبة من التي ذكرها لها "وسيم"، تركت عليه كلمة السر.

كانت ملابسه واسعة ومريحة، بذلة جينز غامقة اللون، وجهه أبيض يشوبه احمرارٌ بسيط، ألقى عليها كلمة السر مردّدًا بحذر:

- أين الأخ وسيم؟

- أنا الأخت رجاء، لقد أرسلني وسيم، تفضل هذا الصندوق.

أعطته إليه، فأصابه الذعر وصرخ:

- لا يا أخت رجاء، نحن مراقبون الآن، أنتِ أمامكِ أن تتركيه في مكان آمن من هناك وأنا سآخذه منه، تدركين ما أقوله.

أصابها الخوف من صوته وغضبه ثم أجابته:

- نعم..نعم.

وراحت تصرخ في وجهه:

- لا علاقة لي بما يحدث بينكم، ليس لي علاقة بكل هذا، الأمن يطاردني، لا أعلم ماذا سيحدث غدًا.

- لم أسمع شيئًا يا أخت رجاء.

ألقت الصندوق على الأرض بهدوءٍ من كثرة غضبها دون أن تعيره اهتمامًا أو لِكَمِّ الخطر الذي سيلاحقهم إذا اكتُشِفَ أمرهم، ورحلت.

راح يسير خلفها بهدوءٍ دون أن يشعر أحدٌ مردّدًا في صوتٍ متهدجٍ:

- سيكون لكِ نصيبٌ كبيرٌ معنا في العملية يا أخت رجاء.

ألقى عليها كلماته ورحل سريعًا على دراجة نارية واختفى في مكان مجهول، حاولت "رجاء" البحث عنه، لم تجده. لم يتبقَّ لها إلا العودة، "وسيم " هو من ينجدها من تلك الكارثة التي حلت بها لكي تفهم منه ماذا يقصد.

سارتْ بشكل سريعٍ ومتعَبٍ كي تتخفى من رجال الأمن، تستطيع العودة

ل- "وسيم " الآن، كاد أن يغمى عليها، قدماها لا تستطيعان التحرك، ويداها مثلجتان من شدة البرودة، اقتربت من رجال الأمن، ثم ابتعدت بسرعة عنهم، وببراعة هربت منهم، المكان للعودة طويل، ليس أمامها إلا سيارة أجرة تحملها إلى هناك.

عدّت واحدةٌ تلو الأخرى دون أيّ استجابة، توقفت سيارة تحمل ركابًا، المكان المتبقي بالخلف، اندسّت وسط الركاب، والحزن معشش بوجوههم، يتساقط الخوف من عيونهم، أجسادهم ترتعش رعبًا مما سيحدث غدًا، أما السائق شاب صغير السن يحاول السيطرة على الركاب وطمأنتهم، وصلت الساعة التاسعة وقد حلَّ المساء بسواده عليهم، وقفت السيارة بمنتصف الطريق، اندهشوا وصرخوا بالسائق متسائلين:

- ماذا؟! الوقود انتهى؟

اقترب منهم رجال الأمن بعد أن انتشروا في جميع الأمكنة استعدادًا للتظاهرات، يقول أحدهم له يا حضرة الضابط، خبط على سيارة الأجرة بيديه، أفزعتهم خبطاته ثم قال لهم:

- هيا، اهبطوا على الرصيف.

طلب منهم بطاقتهم الشخصية، نظرت "رجاء" بخوفٍ وهي تضع يدها على النّقاب بحرص، أعطاه السائق البطاقة وهو يتفحص بطاقاتهم، اقترب منها قائلًا:

- من أين أتيتِ ؟

شعرت "رجاء" أنّ هذا الضابط يشبه الضابط الذي أفلتتْ منه منذ قليل، أم أن كثرة التعب جعلتها تشعر بذلك، فأسرعت في الإجابة وشفتها متورمة من شدة البرودة:

- من أعلى الكورنيش.

أصدر أمرًا بتفتيشهم، لَمْ تتمالك نفسها حتى أصابها الإغماء، ولا تعرف ما حدث، فتحت عينيها بعد فترة طويلة، وجدت نفسها بمشفى، تحاوطها ممرضات وطبيب، طمأنها، ثم قال لها:

- تستطيعين الخروج الآن.

حاوَلَتْ أنْ تفهم ما حدث لكن دون جدوى، ورحلت.

قبل أن تخرج من المشفى، قالت لها الممرضة ماحدث، وأن سائق الأجرة نقلها إلى المشفى سريعًا، ثم هدأتها وأخبرتْها أن الضابط طلب منه ذلك بعد أن أعاد البطاقات للركاب والسائق، وتأكد من هوياتهم، ثم قبّلتها وأمّنتها على حالها مردّدَة:

- أمّني على حالك، الله معك.

عادت " رجاء" إلى محل عملها فوجدت شارعًا قريبًا من مجلس الشعب، يتبقى القليل على محل الملابس، صدمها أن بابه مفتوح، أخرجت شهيقًا عاليًا، يدها على صدرها مرددة:

- يا إلهي!

استقبلها "عمّ شوقي" و "مرسي العادل" حارس العقار بابتسامةٍ عريضةٍ، رحبوا بها ترحيبًا بالغًا، تلفتتْ يَمنةً ويَسرةً بطرف عينيها، متعثّرة في الكلام، فخرجت كلماتها بصورة غير مفهومة، متقطعة:

- متى فتحتم؟

ردّ "شوقي" في قلق :

- ماذا بك يا رجاء؟ أين كنتِ؟ كنّا قلقين عليكِ.

- نعم يا آنسة رجاء، سمعنا أصوات طرقٍ على الباب، توقعنا أنك بالداخل.

بصوت مفزع:

- طرْق! كيف؟ أقصد متى؟

لاحظ "شوقي" حالة الارتباك التي أصابتها ورَدَّ قائلًا:

- ماذا بك يا رجاء؟ لماذا ترتبكين هكذا؟

- تلعثمتْ "رجاء" لا تعلم ماذا تقول، ومن أين تبدأ، فطلبت منهم أن تستريح بعد أن اندهشا من عودتها متأخرةً في ساعة من الليل، قالت لهم أنها ستبقى بداخل المحل حتى الصباح، وهي تبحث عن "وسيم" مردِّدَة بداخلها:

- ترى أين هو؟ وماذا حدث؟

رمقها "شوقي" بطرف عينيه، وقد بان عليهما القلق قائلًا:

- رجاء، ماذا هناك، عن ماذا تبحثين؟

- أبحث عن ملابسَ أرتديها.

- اذهبي اختاري شيئًا لترتديه.

راحت "رجاء" تكوّن قطعًا من الملابس، كان ينقصها بادي مطاطي، وعباءة لترتديها، اتجهت إلى الصندوق تفتحه، صدمها وجود "وسيم"، حدّقت بعينيها قائلةً وهي تضع يدها، تكتم صرختها:

- ماذا تفعل هنا؟

أغلقَتْ الصندوق وانبطحَتْ أرضًا عليه، ظنَّ "شوقي" أنها توجّه كلامها إليه فَرَدَّ قائلًا:

- هل هذا سؤالٌ تسألينه يا رجاء؟ حالتك لم تعجبني اليوم، ونظر إليها، لماذا تجلسين على الصندوق هكذا؟ اذهبي لتبدّلي ملابسك.

ردّت "رجاء" مدعيةً الخجل:

- لا أستطيع أن أبدل ملابسي في وجودكم.

ضحك الرجلان وطلب "شوقي" من "مرسي" أن يخرجا ويغلقا باب المحل لتبدل ملابسَها، ثم يعودا ليستكملا عملهم، أغلق"شوقي" و"مرسي" الباب بإحكام وتدبّر، وخرج "وسيم" من الصندوق محاولًا التأكد من سلامة جهازه التنفسي، مسيطرًا على جهازه العصبيّ، وصحة عينيه، ثم راح يطمئن منها عما حدث في خوفٍ وذهولٍ من ملامح وجهها المخطوف، توقَّع أن مكروهًا أصابها، حاول أن يسترد انفعالاته ويسيطر عليها بعد أن سردت له ما حدث وطمأنته على صندوقه، كانت ملامح الجدية مرسومةً على وجهه، أصبحت تشعر بخشونة معاملته، تراه غريبًا، لا يتحدث معها إلا قليلًا.

سألته "رجاء":

لماذا جئت هنا؟ مالي أنا ومالكم بي، كل ما أعرفه عنك اسمك وأمن الدولة يطاردك مثلما قلت.

جاوبها بصرامة وجدية:

- ستعرفين كلَّ شيءٍ في ميعاده، لم يتبقَّ إلا ساعات بسيطة وأرحل.

ما زال الصمت يطوّق المكان، قطعتها أصوات "مرسي" وعم " شوقي" صاحب المحل مردّدَيْن بصوتٍ واحد:

- أنتهيتِ يا آنسة رجاء؟

اتجهت بالقرب من باب المحل، كانت نبضات قلبها تتصارع متزايدة، فردّت بأنه لم يتبقَّ إلا القليل من الوقت لتنتهي، ثم أسرعت إلى "وسيم" وقصَّت عليه ماحدث.

أدت "رجاء" مهمتها بنجاح وهي لا تعرف ما بداخل هذا الصندوق، لم تتوقع أن تكون هذه التي قامت بذلك، وبعد أن أطلعته عما قامت به، ابتسم على غير عادته أو كما رأته في المرة الأولى ثم شكرها، وقال لها:

- أنتِ الآن دخلتِ صفحات التاريخ، ساعات ويقترب نهار الخامس والعشرين من يناير، ستتجمع صفوف الشعب، كل ما خططنا له قد نفَّذناه بأعلى دقة.

حاول أن يستفهم منها ماقامت به، ويطمئن إنْ كان أحدٌ يراقبها، أخبرتْ أمَّها بأنها سوف تذهب لقضاء الليل مع صديقةٍ قريبةٍ لها حتى تنتهي مظاهرات غدٍ، لا أحد يعلم ماذا سيحدث، لم تعترض على ذلك لكنها بلّغتها أن تحافظ على نفسها.

لم تعلم "رجاء" لماذا أصبحت بارعةً في إتقان الكذب، كل ما تعرفه هذه الحياة الجديدة، أيّ وطنية كما أقنعها "وسيم" جعلتها تتغير ويتبدل حالها من وقت لآخر وبين ليلة وضحاها بعد أن تناستْ ما قاله لها صديق "وسيم"، ولم تسأله عن أيّ عمليّة ستنضم لها أو تستفسر منه عنها.

فعلت كل ما طلبه منها مستسلمةً منصتةً لكلماته، إنها المرة الأولى التي تنقاد فيها لرجل وتعطيه ثقتها، استمعت إليه جيدًا، قال لها:

- أنتِ الآن في مهمةٍ أخرى، لابد أن يكون لك دور في المظاهرات، أنتِ ستشاركين في مظاهرات الغد.

صرخت:

- ماذا تقول! هل هذا لأنني ساعدتك في ما طلبتَه، أن تُدْخِلَني في الحياة السياسيّة! حياتك التي لم أعلم عنها شيئًا.

- إن لم أثق في وطنيتك، فلِمَ أطلعُك من البداية على أن هناك من يطاردونني؟

- هذا شأنك، ليس لي علاقة به، كل ما هناك أنني سوف أشاركك تلك الليلة حتى لا أتركك وشأنك.

- أنصتي جيدًا، هناك من سيشارك معكِ، أنت الآن تحت قيادتنا.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك الآن واحدة منَّا، هذا اختبار نجريه على كل من نستشعر فيه الوطنية.

- كيف؟

- لن أفسر لك أكثر من ذلك، عليك أن تشاركي غدًا.

لم تستطع "رجاء" النوم، هي لا تعرف القراءة أو الكتابة، لغتها شعبية، لم تكن متزنة، وضعت قطعة من القماش على الخزانة ثم

استلقت عليها وهي تفكر، ماذا ستفعل غدًا، لماذا لم ترفض مايقوله لها "وسيم "؟ لَمْ يشرح لها ماستقوم به، لَمْ تفهم عن ماذا يتحدث؟ ولماذا كثيرًا ما يردِّد كلمة "وطنية"؟ تركت التفكير الآن ثم أغلقت عينيها.

ظهرَتْ أشعة الشمس تنثر نورَها على أعتاب المحلّ، الوقت في العاشرة صباحًا، استيقظت "رجاء" على صوْت "وسيم " وهو يصرخ: "وصلوا إلى هنا".. "هيّا هيّا" انتفضت من مكانها، وتساءلت:

- لماذا لَمْ تخرج معي؟

- مُهِمَّتِي انتهتْ، أنا في انتظار الأوامر.

- تنتظرها من أين؟

- ليس وقته الآن، أنت تكتبين لمصرَ تاريخًا جديدًا، هيّا.

فتح لها بابَ المحلّ وتركها وحيدة لا تعرف ماذا تقول أو تهتف، كيف تهتف ضدَّ نظامٍ عاشتْ من خيره، أو تتفوَّه بكلمات توشك على أن تُنْهي حياةَ أهلها.

خرجت حتى اندسّت وسط المتظاهرين، هتافاتهم تتعالى، يصرخون ويطلقون أقوى الكلمات "ارحل مش عايزينك، ارحل يا مبارك مش عايزينك، تسقط الحكومة، يسقط الرئيس".

ملايين الجماهير من الشعب، وكأنّهم يشجعون مباريات بين الأهلي والزمالك، لم ترَ هذا التَّجمع من قبل، ظنّت أنهم لا يتجمعون إلا بمباريات كرة القدم.

وضعَت يدها على غطاءِ رأسِها الأسود ثم أسدلت النِّقاب جيّدًا على وجهها، وأخذت أطرافه وبلَفَّاتٍ متتابعةٍ وضعته على أنفها و فمها واليد الأخرى تلتقط بها رداءَها الأسود، تسير بخطواتٍ هادئةٍ بسيطةٍ خائفة من شيْءٍ ما، لم تدركْ هذا الحشْدَ منذ زمن بعيدٍ، لم ترَ "رجاء" أو تشارك بمظاهراتٍ من قبل.

تابعت السير وسطهم، لا تهتف معهم، ليس خوفًا، لكن لا تعرف ماذا تقول، كيف يرحل وهو رئيس البلاد؟!

والدُها كان يردّدُ لها أنهم يعيشون من خيره، إذن لماذا يتظاهرون ويريدون رحيله؟ تصدق مَنْ؟ والدها؟ أم هؤلاء الثائرين؟ أم كلام "وسيم"؟

إنهم كثيرون، يتشابهون في ملابسهم، يتخبطون ببعضهم حتى أصابوا جسدها الضئيل بآلام مبرحة. أكثر ما أثار دهشتها صمودٌ لم تشهده من شعبٍ جبانٍ صامتٍ، هذا ليس رأيها، إنه رأي صاحب المحل "عم شوقي"، وتساءَلت بينها وبين ذاتها: هل هؤلاء هم طبقات الشعب؟!

لم تجد إجابةً إلا في هتافاتهم الرّنانة حتى أيقظتها من شرودها، ثم فجأة توقفوا بالقرب من ميدان التحرير، وعصيّ من اليمين واليسار تنهال عليهم ضربًا يطيحون بهم من جميع الجهات، هم رجال الأمن المركزي، وهتفت:

- أخي معكم، دافعوا عن بلادكم وهؤلاء الثائرين.. هيا.. وهتفت عاليًا: مصر.. مصر.. تحيا مصر.. يعيش مبارك.. يعيش مبارك.

التفّ بعضُهم حولَها، وقال أحدهم:

- من أنت أيتها الخائنة، اضربوها، اخرجي، اخرجي، هذا المكان لا يصح أن تكوني هنا، هذا المكان للشرفاء، راحت ترفع يدها وبقوة لتطيح به، فأوقف ذراعها ثانيًا إياه، وركلها في بطنها، فاجتمعوا حتى جردوها من النقاب.

صرخت وراحت تبكي وهى تتأوّه بشدة:

- اتركوني، اتركوني، اتركوني.

وقفت "رجاء" على جانب الشارع المؤدي لميدان التحرير وهى تبكي بشدة، ثم عدّلت من هيئتها، أرادت أن تعود إلى منزلها، ولا تعود للعمل مرة أخرى وليحدثْ ما يحدث بعد أن شعرت أن أمرها افتضح وأن كرامتها تبعثرت، إلا أن الضّرب عاد ثانية، لم تجد من يحميها من دروعهم الواقية ولا من هجمات الشعب.

صرخت:

- أين أنت يا أخي لتحميني من هؤلاء اللصوص، هتفت مره أخرى: ربنا معك ياحكومة، ربنا معك يا أخي.

تفرَّقَتْ طبقات الشعب يحاولون التصدّي لضربات الأمن دون فائدة، وصرخت:

- اتركوني، أنا معكم، اتركوني لماذا تضربونا كذلك؟ لَمْ يسمعْ صراخها إلا شخص، وراح يرد على تساؤلاتها، رجلٌ سمينٌ أصلع:

- يا بنتي هذه هي الحكومة، وهؤلاء كلاب الحكومة، لا يفرقون بين هذا أو ذاك، هؤلاء عبد المأمور.

- أخي ليس كلبًا، لا تقل ذلك، أنت لص.

- الحكومة هي أكبر لصّ، سرقت ضرائِبنا وأراضينا، وشردت أبناءها.

لم تصدق ما قاله ذلك الرجل الأصلع بدين الجسد، لكنها لم تصدق ما يفعله رجال الأمن أيضًا، قالت لهم أنا معكم وأخي يعمل معكم، لَمْ يعيروها اهتمامًا، راحت تبكي بشدة:

- أين أنا؟ أتلك هي مصر ابنة البارحة؟

سمعتْ صراخَ امرأةٍ عجوزٍ تخطّت الخامسةَ والستين من عمرها، وجهُها فقد بريقه وعينها تدمع وقد بانت الشيخوخة على يدها، راحت تندب لها:

- أين أنتِ يا مصر؟ هؤلاء أولادك، أين أيامك يا عبد الناصر؟ ربنا على الظالم، ربنا على الظالم، ثلاثون عامًا صابرين، وردَّدَت معهم: "يسقط مبارك".

اشتعلتْ "رجاء"غضبًا ممّا تقوله مستنكرةً كلامها فقالت لها:

- اخرسي يا عجوز يا حمقاء.

لم تجد رجاء إلا حذاءً مرفوعًا على وجهها، أرادت العجوز أن تلقنها درسًا فصرخت في وجهها:

- سأضربك حتى لا تعرفي رأسك من قدميك.

راحت "رجاء" تصرخ في وجهها:

- عجوزٌ حمقاء.

ثم وضعت العجوز حذاءَها وأعادته إلى قدمها، وراحت تصرخ وسط المتظاهرين مردِّدة:

- انظروا إلى عدوّة الشعب.

لم تكتف بذلك وراحت تصرخ:

- هذه الفتاة مجنونة.. مجنونة.

راح الشعب يسبُّها ويقذفها بالشتائم "خاينة وعميلة" ثم أخرجوها مرّة أخرى من مظاهراتهم.

لم يسمعوا، لم يفهموا، لم يدركوا أنها معهم، ثم تفرق الشعب للتصدّي لضربات الشرطة ورجال الأمن المركزي، وكررت صرخاتها مردِّدَةً:

- اتركوني، اتركوني.

انقطعت أحبالها الصوتية، وانحشر صوتها، وقفت ورشقتهم بالحجارة كما يفعل الشعب، وهى تبكي وتردد:

- أنا معكم وأنتم خائنون.

كانت القنابلُ مسيِّلةً للدموع أشبه بسيل من الأمطار في ليالي الشتاء، وفي وسط التحرير رشقوهم بالحجارة من أعلى الكوبري، وأسفله.

كانت "رجاء" أسفل الكوبري، ومن خلفها تطاردهم سيارةٌ صغيرةٌ مصفحةٌ يخرج منها رجال الأمن، يحملون أسلحةً ناريةً يبدأون بضرب الطلقات من كل جانب حتى أصابت رجلًا عجوزًا.

أصابته بقدمه وأخرى بصدره فوقع على الأرض مطروحًا يصرخ من الألم، وتوحّدت مع الشعب دون أن تدري، تصرخ على المصاب، دماؤه متناثرة، اجتمع حوله مجموعة من الرجال ثم حملوه.

ظنّت "رجاء" أنهم يبرحونه ضربًا، فأخذت قطع حجارة، رشقتهم بها وهي تصرخ ثائرة:

- اتركوه.

فاصطدمت بواحدٍ منهم يغطي وجهَه قماشٌ أبيض، ملابسه قطنية متينة، قام بثني ذراعها صارخًا:

_ ماذا تفعلين يامجنونة؟

وراح يلطمها على وجهها بقوة يده قائلًا:

- اذهبي من هنا.

استدار ناحية المصاب يسحبه من ملابسه وقدمه، وفي لحظات سريعة قام بتهدئتها وراح يشرح لها قائلًا:

- نحن هنا لإنقاذه، ثم هبط أرضًا يحاول سحب المصاب من أجل أنْ يضعَه على دراجته النارية.

ثم نظر إلى "رجاء" وقال:

- لاتخافي.. أنا ابن مصر ولست عدوّها.

وقعت كلماته على أذنها، كادت أن تصاب بالصمم مما قاله، وكأنها اكتشفت حقيقةً محفورةً بقلب صخرةٍ لا أحد يقوى على معرفتها.

استجمعت قوتها، وتذكرت كلام "وسيم"، منذ قليل كانت ستلعنه، لكنها الآن تشكره بعد أن عرفت الحقيقة.

سارتْ وسط المتظاهرين بميدان التحرير لتصلَ إلى القصر العيني وهي تردد: "لا لمبارك.. لا لمبارك.. لا لمبارك"

* * *

لن أستطيع المكوث أكثر من ذلك.. تلك كانت كلمات"وسيم"داخل المحل، مغلق من أيّ بَصِيصِ نورٍ، يَعُدُّ الثواني والدقائق في انتظار "رجاء"، حتى الآن لا يعرف اسمها، كل ما يعرفه بسالتها وشجاعتها وحبّها في الدفاع عن الوطن، ملامحه بان عليها القلق، ماذا يفعل، يريد الاطمئنان عليها، متسائلًا:

- ترى ماذا حدث؟ هل وقعت بيد الشرطة؟

أمسك رأسه، يروح ذهابًا وإيابًا، حتى أصوات الهتاف التي كانت تطمئنه من الخارج انقطعت مرة واحدة، وسيرورة الهواء المتبقية أشبه بفيلم رعب.

أشعل بطارية الكهرباء ثانيةً، لم يتبقَّ من شحنها إلا القليل، بدأ التجول داخل أرجاء المحل، ربّما يعثر على حلّ. ملابس حريمي، كلها ملابس لا تنفع ولا تجدي بشيء، الشرطة تعرف ملامحه جيدًا، تحفظها عن ظهر قلب، ماذا لو وقع بيدهم؟ لن يرحموه بأسئلتهم الخانقة، ماذا

لو علمت هذه البائعة بأمره؟ لن توافق على وجوده ولو لبرهة واحدة، ثم خبط في غضب على باب المحل، حتى أحدث صوتًا عاليًا.

- مَنْ؟ مَنْ بالداخل؟ "رجاء".. يا آنسة "رجاء".

إنه حارس العقار، أصابه الذعر بعد أن سمع الخبط على أبواب المحل، وراح "وسيم" يختبئ خلف الملابس وهو يستمع إلى ما يقوله.

- ماذا هناك؟

- أريد الاطمئنان على "رجاء". سمعتُ أصوت طرق على الباب فأردت أن أرى ماذا يحدث بالداخل.

شرع صاحب المحل في النزول إلى "مرسي العادل" حارس العقار الذي يقطن فيه صاحب المحل متجهًا إليه:

- القفل مغلقٌ. إذن من أين يأتي الصوت، أنت تعيش تخاريف الشيخوخة.

قالها وهو يضحك فرد "مرسي":

- فليسامحك الله! وراح يتساءل بدهشة:

- أين هي؟ أنا رأيتها منذ قليل داخل المحل.

سمع "وسيم" سؤاله فاندهش في صمت بعد أن علم أن "رجاء" على اسم والدته. ورد صاحب المحل بذهول ودهشة كبيرة متسائلًا عن مكانها:

أنت تقلقني عليها، أعتقد أنها بالخارج تشتري شيئًا، خاصةً أن المظاهرات اختفت من هنا، أنا معي نسخة ثانية من مفتاح المحل، انتظرني سأذهب لأحضرها من أعلى.

وضع حارس العقار الكرسيّ أمام باب المحل وما إن سمع"وسيم"حديثهم حتى راح يدور بالداخل، يبحث عن مكان يختبئ به، فلم يجد، ماذا يفعل إذا انكشف أمره لصاحب المحل، سيبلغ رجال الأمن، ربما يتهمه باللصوصية، وربما بالإرهاب أو بالجاسوسية.

محل الملابس مقسمٌ لدورين: دورٌ لملابس الفتيات، والآخر لملابس السيدات، الدور الأول به مدخلٌ صغيرٌ كي يصلَ للباب الرئيسي وعلى يمينه ويساره فاترينة لعرض الملابس على أجساد المانيكان، وبالداخل عمودان تتوسطهم "بروفة الملابس"، لم تتعد الثلاث بروفات، ووسط المحل إستاندات معلقة عليها الملابس من كل أنواع الأقمشة، على اليمين صندوق كبير يصل إلى 5 *6 أمتارٍ يحتوي على ملابس قطنية، وباديهات مطاطية مغلفة بأكياس مصنوعة من البلاستيك، ربما الصندوق هو المنقذ الوحيد له، والذي يقطن بالدور الأول، بجانب الخزينة التي يجلس بالقرب منها صاحب المحل.

اختبأ "وسيم" بداخله مسرعًا بعد وصول صاحب المحل ومعه المفتاح، فرفعا الباب ودخلا ثم قال "شوقي ":

- أين هي الآن؟ هذه نتيجة المخدّرات التي تأخذها من حين لآخر، أودّ أن أعرف كيف تعيش زوجتك معك حتى الآن؟

- هذه المخدّرات تلهيني عن الحياة و الحكومة وفسادها، تعرف، أمس زوجتي راحت توقظني في الليل لكي أحضر لها "رنجة " لأنها تتوحم، من أين لي أن أحضر لها "رنجة"؟ هذا خامس طفل تنجبه، وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟ نزلتُ وعدتُ دون أن أفعل شيئًا.

- راح " شوقي " يسأله مستنكرًا:

ومن أين تأتي بأموال لشراء المخدّرات؟

فراح يضحك:

- من عند المولى، ولكن أريد أن أعرف أين هي الآنسة رجاء؟

* * *

لم تشعر "رجاء" بهذا الإحساس من قبل، إحساس داهمها بحبّ مصر وشعبها وكرهها للنظام ومبارك ومايقوم به الأمن، خانها رجال الأمن حتى بعد أن قالت لهم أنها معهم، وهي تتجه مع المتظاهرين بالقرب من شارع القصر العيني، تركتهم متجهةً إلى السَّير وحدها من داخل الشوارع الضيّقة التي ستصل بها إلى الشارع الرئيسي.

تحفظ المكان عن ظهر قلبٍ، كانت تسير مع خطيبها قبل فسخ خطبتها التي لم تكتمل غير شهرين فقط، يداهما تعانق بعضها، يتحديان صعاب الحياة. كانت تحب رجولته لكنه تركها وحيدة بعد أن فقد الحصول عليها وعلى وظيفة تليق بها، استدان من والدته وأقاربه لكن هذا لم يرضِ طلبات والدها،

طلبوا مهرًا بثلاثين ألف جنيه وشقة، عرض عليهم إمكانياته فرفضوا، وكان مصيرهم الفراق، ليس بجديد، وليست هي أول المجروحات، سارت تتأمل الأماكن وقد دب فيها الشعب شجاعته وغضبه، لافتات لشهيد الطوارئ خالد سعيد ممزوجة بألوان حمراء وأسفلها مكتوب يوم الغضب "يوم استرداد الكرامة"، وقفتْ نظرتْ إليها للحظات، تذكرت ما قالته وسائل الإعلام المصرية التي كان يطلعها عليها عم "شوقي" صاحب المحل، ضبطنا بحوزته لفافة بانجو، أدركت أنها لا تستطيع تصديق ما يقال، إنها حرب الوعي، تحسست اللافتة وهى تحدثه:

- لاتقلق يا خالد، سنأخذ لك حقّك ودمائك المهدورة، أنت شابٌّ مثل كل الشباب الموجودين، قلبك طيبٌ، وتنتظر عملًا، وتحب بلدك، أنا أدركت الحقيقة متأخرة، كلنا شهداء الظلم، لست وحدك، كلنا معاك يا خالد.

وراحت تقرأ على روحه الفاتحة.

ملايين اللافتات تحمل "لا لمبارك"، "ارحل"، وصورته على أرضية الشوارع، وبجانب البالوعات، بصقت عليها ورحلت.

كان الوقت اثنين بعد الظهر، وعلى بعد 50 مترًا ستتجه إلى شارع قصر النيل،

* * *

"منصور الأسمر" يلقبونه بالأسمر لشدة سمار بشرته، هو شقيق "رجاء"، وبشرته السمراء دليلٌ على تحمله الوقوف بالساعات في شوارع مصر، أم الدنيا، للدفاع عنها من بلطجية شعب مصر وأعمال السلب والنهب.

حينما علم "منصور "بطلبه للتجنيد خفق قلبه بشدة، ولم يتردَّدْ لحظة في تلبية دعوتهم، فصلى ركعتين لله ليدعوه أن يوقع الاختيار عليه، هذا طموحه ليرفع علم مصر عاليًا، كلما رآه في شوارع مصر يطل برأسه لأعلى يتأمله في زهوِه ونقائه بالقرب من مدرسته القديمة، يدندن بكلمات غير مفهومة، تلك الكلمات كثيرًا ما كان يرددها منذ الصغر بنشيد مدرسته "الناصرية الابتدائية " والتي تقع خلف حارته وتدعى حارة السَّقَّالِين.

راح يعد ترتيباته للتجنيد، ونوى العزم على هناك، فوقف الصُّول أمامه مذهولًا من جسده، وصرخ ببذلته البنية ولهجته الريفية التي تعبر عن موطنه الأصلي وكرشه الذي يتدلى منه بعد أن طلب ممن يحمل شهادتيْ الابتدائية والإعدادية الوقوف في الصف.

وراح يربت على كتف "منصور" قائلًا:

- من أين تأتي بهذه الصّحة؟

عقد "منصور "حاجبيه دون أن ينطق بشفا كلمة، حتى جاء دوره للكشف، فاجتاز جميع الاختبارات النفسية والبدنية، حشروا بعقله لافتاتٍ وأكلاشيهاتٍ مختومة بختم كرهه للشعب ،فلا أحد يقوى على محوها، فهَّموه أن هؤلاء هم سبب الخراب والدمار الذي يحدث،

محاولين قتل رئيسهم وسرقة أموال الحكومة وليس للشعب نصيب فيها كما يرددون.

ولأن "منصور" لا يفكر وسهل الانصياع والقيادة وملبٍّ جيد لرغباتهم، قرر رؤساؤه أن يضعوه في الصف الأول بين زملائه لمقاومة المتظاهرين وقمعهم وضربهم ضربًا مبرحًا حتى الموت، لقنوه دروسًا في الدفاع وحركات الموت، ودروسًا نفسية تغسل عقولهم، وتثير شهوة الغضب عندهم، منهم من ثار كالثور يصرخ وعلى رأسهم "منصور" فراح يحلف اليمين أمام زملائه بألا يترك متظاهرًا ينجو من بين يديه.

أكثر ما يميز "منصور" ليس بشرته السمراء فقط، بل جسده القويّ متين البنية، وشاربه الأسود لدرجة أن رؤساءَه يخشون منه ومن نوبات الغضب التي تصيبه، ويومًا ما شهد عنبر زملائه تكسيرًا وأعمالًا تخريبية لمشاجرة وقعت بينه وبين أحد زملائه الذي تجرأ وتطاول عليه ساخرًا منه ومن جسده ذو البنيان القويّ، إلا أن صلابة عقله وقوة عناده التي تتشابه مع قوة جسده أطاحت بموت زميله، فلم ينج من قبضة يده القوية، ولا أحد يستطيع أن يحيله لمحاكمة عسكرية، فوصل الأمر إلى تعيينه بمنصب "صول" لكنه رفض وقرر أن يدافع عن مصر.

كان "منصور" ينتظر يوم جمعة الغضب بترقُّبٍ وصبرٍ شديدٍ، أغلق باب حجرته ليتدرب طوال الليل على تمارين رياضية قد تعلمها بالتجنيد، ولم يكُفّ حينها عن تناول الطعام بشراهة لتكون وجبة إفطاره رغيفين وأحيانًا تتعدى ثلاثة أرغفة، وخمس بيضات مع كوب لبنٍ طازجٍ ممزوجٍ ببرطمانٍ صغيرٍ من عسل النحل، وبجانبه علبة جبن، ويعدّ مثلهم في

العشاء، أما الغداء فيكون فرختين ومعه ذكر بطٍّ، وصحنٌ كبيرٌ من كل أنواع المحشيات، تقوم والدته بإعداده خصِّيصًا له.

انتهى من ذلك ليرتدي بذلته العسكرية وبيده نَبُّوته، ثم يقف أمام مرآته متأملًا مفاتن جسده، لم يكن "منصور" من محبّي النساء، لكن ما يمكن أن يشغل باله وتفكيره بائعة الجرائد التي على أول ناصية حارته، يشعر أن عينيها تراقبانه و تنجذبان لمفاتن جسده، كلما مرّ أمامها تصدر ضحكةً رنانة، فيبتسم فرحًا، لكنها تسخر من حركاته المضحكة والتي تجعلها تضحك حتى الثمالة، وعند بلوغ الفجر مشرقة، استعد "منصور" ليركب مع زملائه داخل عربة الترحيلات ومعه نَبُّوته الصغير مع الواقي الزجاجي تأهبًا للمظاهرات.

عدَّى من الوقت ساعاتٌ في ساحة المظاهرات - وسط التحرير - و"منصور" يشهر نَبُّوتَه فيتلقّى المتظاهرون أقوى الضربات، ويلطمه على خدِّه بأعنف اللطمات ليسيل دمه من فمه، باتتْ ضرباتُه رغبةً لديه وكأنها عادة تعود عليها، أدمنها كإدمان المخدرات، وإذا لَمْ يقم بتعذيب الآخرين يشعر وكأن حاجةً تنقصه، لدرجة أنه يستمد لذّته من قمع وضرب المتظاهرين.

وبعد كل ضربةٍ لهم يصدر أصوات النصر والفخر، حيث شاعتْ أخبارٌ قبل نزول المظاهرات تقول بأن رئيسَهم إذا صافح أحدًا منهم أثناء المظاهرات فإنه دليلٌ قويٌّ على رضاه عنه، ليكون ذلك سرًّا عسكريًّا بينه وبين رجال الأمن المركزي.

وبعد كل إراقة دماء المتظاهرين يتصدى بها "منصور"، فيصافحه رئيسه لتزداد الضربات، ويُحْدِثُ عاهاتٍ مستديمة لهم، العَرَقُ لَمْ ينتهِ منه، تنفسه يصدرُ أصواتَ نهيجٍ، طلبَ منه رئيسُه أن يعودَ إلى منزله كي يستريح ويناوب زميله مكانه، وذلك استعدادًا للأيام القادمة، فربّت على كتفه قائلًا:

- أنا سعيدٌ بك اليوم، أهمّ شيء المظاهرات القادمة من هؤلاء الكلاب.

اكتفى "منصور" بتحريك رأسه ثم ضرب تحية عسكرية بيده مشدودًا مما يحدث من ضرب. بعد أن غمز رئيسه له بطرف عينه كإشارة لبدء الرحيل.

عاد "منصور" لبيته حيث يقطن بحارةٍ ضيقةٍ لا يستطيع أن يعبر فيها إلا ثلاثة مجموعات تسير كالجيوش، كلما عدّى "منصور "يهم جيرانه وأصدقاؤه بإلقاء التحية خاصة بعد أن صار يحمل بينهم لقب "دفعة ".

ويرد "منصور "رافعًا رأسه لأعلى بعد أن شَرّف حارته ليكون حامي أمن مصر، وبإشارة من يده تعبّر عن سلامه دون أن ينطق بكلمة، إلا أن ما أثار دهشته اليوم ابتعاد جيرانه، فكلما مرّوا عليه لا يعيرونه اهتمامًا، ولم يلقِ أحدٌ السلامَ عليهِ ولو على سبيل المزاح كما كانوا يفعلون.

قرّر "منصور" أن يبدأ هو السلام، منهم من ردّ ردًّا سيئًا والآخرون لم يردُّوا إلا بنظرة غضبٍ ثم استداروا يتابعون المظاهرات وما يحدث بها بمحلّ بقالةٍ يمتلكه الحاج "زهدي"، يلجأ إليه كثيرون لحلّ مشاكلهم، يجتمع بهم كلَّ يوم جمعةٍ عقب الصلاة ليطلعَهم على أهمّ الأحداث التي

تدور بالبلد ويقرأ لهم الجرائد يوميًّا، يكره النظام كرهًا كبيرًا، نظام الفساد الحاكم ونظام "حسني مبارك"، ومن المشاكل التي يحلها مشكلات المتزوجات، حتى إنه يغدق بالمال كل جمعةٍ على أهل الحارة الفقراء ويساعد أطفالهم في التعليم ودخول المدارس.

"منصور" شهد أحسن النصائح على يدي الشيخ "زهدي"، كانوا يدًا واحدة، طلب منه أن يكون سندَه وظهرَه بعد أن مات ابنه في حادثة سقوط عبارة السلام 99، إلا أن "منصور" لم يرضِه أن يكون صبيًّا في محلّ، لكنْ أراد أن يحقق طموحه في الدفاع عن بلده.

عندما علم الحاج"زهدي"بنجاح "منصور" كعسكريّ أمن مركزيّ اشتَدَّ حزنُه عليه، وبعد أن عاد من هناك حاول "زهدي" أن يطْلِعَه على ما يجري لكنّه لَمْ يقتنعْ، بدأت العلاقة تتوتر بينهما وتتأزّم لتصلَ إلى عدم رؤيتهما لبعضٍ، وكلَّما وقعتْ عينُ أحدِهما بعينِ الآخر يستدير بظهره جانبًا وكأنَّه لم ير الثاني.

استطاع أهلُ الحارة أن يصالحوهما على بعضٍ لكن دون جدوى، ولأنّ أهل الحارة لم يردُّوا عليه السلام وحزنهم على وجوههم، وعيونهم لَمْ تشهدْ نومًا عميقًا، راح حينها يضرب كفًّا بكفٍّ وصعدَ إلى منزله مُقَبّلًا رأس والدته ثم انحنى أرضًا ليقبلَ قدمها، إنها عادته منذ الصغر.

منزل "منصور" قديم ولكن طلاءَه حديثٌ إلا أن أثاثَه متينٌ وقويٌ يحتوي على قطعٍ قديمةٍ وعصريةٍ، ثلاث غرفٍ كبيرةٍ، لتَكُونَ مِسَاحةُ المنزل90مترًا.

عند أول مدخلٍ لباب المنزل يضع "منصور" صورةً للرئيس "مبارك"، كلّما دخل إلى باب المنزل يَهُمُّ برفع يده تعظيمَ سلامٍ واحترامًا لرئيسه، ثُمَّ يلقي اليمين إليهِ ويَعِدُه بحماية أمّ الدنيا "مصر" ويدعو ربَّه أن يقابلَه أو يصافحَه أو يكونَ تحتَ حراسته من المتربّصين له في كل مكان.

بجانب الصّورة، شبّاكٌ صغيرٌ يطلُّ على أهل الحارة يرتاح عليه والده "عباس"، يترقب أحوالهم ويتطلع إلى الحاج "زهدي" وماذا يفعل، ثم يدوّنها برأسه ليُبَلّغَ بها رجال أمن الدولة الّذين يعمل تحت حسابهم ولمصلحتهم منذ حوالي ما يقارب العشرين عامًا.

انطرح بجانبه "منصور" يشكو إليه ما حدث معه من سوء معاملة اليوم، وعينه محدقة خارج الشّباك، فراح والده يقول له زامًّا شفتيهِ ومبتسمًا:

- أنا أعرف أشياء كثيرة عن كلّ شخصٍ في هذه الحارة هو لم يدركها عن نفسه، هذه أسرار أمن دولة، ولا يصح أن أطلعك عليها، قريبًا سيأتي اليوم الذي آخذ لك حقّك فيه منهم ومن الحاج"زهدي" فرعون الحارة.

ويردّ "منصور" بدهشةٍ كبيرةٍ:

- لماذا تقول ذلك يا والدي؟!

- ليس وقته الحديث عنهم، أخبرني عن عملك، أعطيتَ الشعب الجبان درسًا لن ينساه؟

يردّ وقد بان عليه الحماس بصوته الخشن المحشرج:

- نعم، لم أترك أحدًا إلا ميّتًا ودماؤه على الأرض وجميعهم يهرولون إليه ويصرخون لإلحاقه، وأنا أضحك من كل قلبي.

- أحسنت يا منصور، أنت سَنَدِي وظَهْرِي في الحكومة.

ثم شاور على صورة الرئيس قائلًا:

- هذا الرجل نحن نعيش من خيره ومن خير رجاله، وإذا ترك الرئاسة سنضيع، ولن نَجِد من يُؤوينا.

انتفض من مكانه مقبلًا يد والده:

- لا تقل هذا يا والدي، نحن فداء الرئيس وفداء الحكومة وفداء أمّ الدنيا "مصر".

تدْخُل والدته بصينية يملؤها حمامٌ محشوٌّ بالأرز مع ذكر بطٍّ وكلِّ أنواع المحشيات، يتابعون نشرة القناة الأولى ويهلّلون بانتصارات الرئيس على الشعب وقمع رجال الأمن لهم، وتُردِّد والدته بفرحة:

- اللهم انصر الحكومة، كُلْ يا بنيّ كُلْ.

ثمّ تضع يدها على رأسه وكتفه قائلة:

- أنت لمْ تأكل منذ أمس.

يتناول "منصور" زوجيْ حمامٍ بيدٍ واحدةٍ ثم يتساءل:

- أين رجاء؟

* * *

في عقارٍ جديدٍ "بوسط البلد "، وبالقربِ من ميدان "طلعت حرب" استقلّ "شريف كوتة" المصعدَ، ليصعدَ إلى الطابقِ السابع، رأسُهُ موجَّهة إلى مرآة المصعد، يُعَدِّلُ من هيئته.

"شريف كوتة" مصورٌ وصحفيٌّ بجرائدَ قومية، معروفة بمانشيتاتها هذه تمجد الرئيس. عمل "كوتة" مع رجال الحزب الوطنيّ، خدمهم بحياته أثناء حملات الانتخابات بصُوَرِهِ المُزَيَّفة مع الشعب المصريّ، كان إخلاصه سببًا في ثقة رجال أمن الدولة، فدسُّوه بين المتظاهرين لالتقاطِ بعض الصور التي تدينهم وتُظْهرهم كإرهابيين ومسَيَّسِين، لا كشعبٍ بسيطٍ يطالبُ بحقِّه من الدَّولة، وبعدها يتعرف على هويَّاتهم وما يدور بينهم، يقف دائمًا في محيط قصر النيل والقصر العيني وميدان التحرير يتصنت ويلتقط صورًا لهذا وذاك بأمْرٍ مِنْ أمن الدولة تحسُّبًا لما سيحدث.

توقَّف المصعد عند الطابق السابع، كل طابق يحمل أربع شققٍ، على يمين الطابق بابٌ لمنزلٍ مطليٍّ بلونٍ أسود مخلوط ببرونز ذهبيّ، تعلوه كاميرات مراقبة لن يراها إلا "شريف كوتة"، وضعها بيده بأمرٍ مِنْ رؤسائه، أجهزة حديثة تكشف الأماكن الداخلية بدايةً من ميدان طلعت حرب وأماكن داخلية كغرف النّوم التي يقطنون بها. دخل "شريف" المنزل، منزل تتوسطه أربع غرف خاصة واسعة، تكفي لأربع رجال، ضابط واثنان من أمن الدولة و معهم " كوتة ".

الجرائد على أرضية المنزل، مغطاةً بباركيه خشب، ومقاعد "سوفا" خضراء تتوازى مع اللون الأبيض لجدران الشّقة، على بعد مترين يوجد بار على طراز أوروبي تملؤه جميع أنواع وأصناف الخمور والفودكا

بجانبها "مَزَّات"مناسِبة، على اليسار ستانداتٌ محملٌ عليها تليفزيون توشيبا بوصات عالية ونوعان مختلفان من الريسيفر، ريسيفر عرب سات ونايل سات، وريسيفر أوروبي يبثُّ جميعَ القنوات الإباحية، لكنهم يشاهدون الجزيرةَ ومعها القنوات المصرية لمتابعة الأحداث، أما قنوات البورنو فهي تُسَلِّيهِمْ وقتَ الراحةِ ليلًا، مع كئوس الفودكا والمَزَّات، المنزل عصريّ يقترب من الطراز الأوروبي.

وراح "شريف كوتة" يَعْرِض صورَ المتظاهرين على ضابط الشرطة "علاء الجندي"، إن ما يُمَيِّز "علاء " حبَّه لعمله، هو المرتبة الأولى لديه، أمّا والدته وأقاربه آخر من يفكر فيهم.

يُعْرَفُ بين زملائه بقضايا الاختلاس والرّشوة، فكلما اختلس وارتشى كلّما زادت مراتبه وترقيته، منضبطٌ وحازمٌ، لا يُفَرِّقُ بين شقيقٍ أو غريبٍ كلّهم متساوون أمام القانون.

يَحُطُّ مِنْ شأن المرأة المصرية وجمعيات حقوق المرأة، مما جعله مضربًا عن الزواج، أما الأجنبيات يثيرون غريزته الجنسية لكن لا يشبعونها، لديه اعتقاد أن المرأةَ كائنٌ مثيرٌ للاشمئزاز ومقزّزٌ، يشبه جسد رجل في صوت أنثوي، يتميّز بالجديّة والصرامة، لا يضحك وإن كانت مواقف عدّة تستدعي الضحك، تجذبه رائحة الفودكا والبنّ المحوّج، طفولته غير عاديّة، فقد شهد تعذيبًا وجلساتٍ كهربائية، هذه هي طريقة التفاهم التي تعامل بها والده معه حينما يخطئ، أو يلفظ ألفاظًا خارجةً، مما جعله حادًا وعنيفًا في جَلْدِه.

لذلك يشتهي تعذيبَ المساجين ويطلب جَلْدَهُم بنفسه، وأثناء الجَلْد يمرّ شريط طفولته أمامه فيترك السّوطَ أرضًا ويذهب للحمّام في سرعة مذهله، يفرغ كل ما بمعدته، وبعد دقائقَ يعود إلى حالته الطبيعية، يُحِبُّ الضابط "علاء" مشاهدة اغتصاب السّجينات إذا لزم الأمر، ويبتسم ابتسامةً تَنُمُّ عنْ شخصٍ حقيرٍ، ثم يقذفهم بأقبح الشتائم ويرتدي نظارته السوداء ويرحل.

لَمْ يُبْدِ إلا ابتسامةً تكشف عن سعادة صيّادٍ بفريسته، فريسة مختلفة، يقلب الصور وهو يردد قائلًا:

- دائمًا متميز يا "كوتة"، صورك هذه المرّة ستفيدنا كثيرًا.

- تلميذك يا باشا.

كانت الصور لصلاةٍ جماعيةٍ في اليوم الثالث للمظاهرات يوم الجمعة 28 يناير، تقذفهم سيارة رشّ المياه بمدافعهم الخرطومية، ثم قال مبتسمًا:

- شبه صفوف النمل، بيجروا على قطعة سكر، وأول رشة ميّه يجروا جري الكلاب، قريبًا سنحملهم على نقّالة.

يقلب، ثم يقلب، صور تستحق البكاء والعويل، وقعتْ عيناه على صورةٍ لـ"رجاء" مع "حسن الإسلامبولي" فقام الضابط من مكانه وكأن شيئًا لَسَعَه قائلًا:

- حسن الإسلامبولي!

ردّ "شريف كوتة" مندهشًا:

- ماذا به؟

وراح يضرب بيده على المكتب داخل حجرته الخاصة:

- ده واحد من جماعة العمليات الاستشهادية، ومُعارض لنظام الحكم، ومعه "وسيم المغربي" من ضمن الجماعة، حاول "وسيم" أن يحوم حول قصر الرئاسة، لكي يقوم بعملياته الاستشهادية لكنها فشلت، وهرب ولم نعرف مكانه حتى الآن.

- هؤلاء ضمن أيّ معارضة؟

- هؤلاء ليسوا معارضين، التحريات قالت إنهم جماعة كوّنتْ نفسها بشكلٍ عشوائيٍ وعددهم وصل لأكثر من مئة شخص، أما "وسيم" فهو أخطرهم، شهد معتقلاتٍ كثيرةٍ، بعد أن عاد العرب الأفغان لمصر كان واحدًا منهم، أكثر ما يميزهم يا "شريف" هو تغيير أشكالهم لدرجة أنّك لن تعرفَهم من وسط ألف شخص.

ثم أشعل سيجارتَه وهو ينفث دخانها بوجه"شريف كوتة" وأكمل حديثه قائلًا وهو يتجوّل وسط الحجرة الخاصة به:

- صف لي المشهد جيدًا ثم دوّن لديك الوقت، وضع عينك على هذه الفتاة، أريد أن أعرف مَنْ هي وما علاقتها بـ"حسن"؟

- "حسن" أم "وسيم المغربي"؟

- لديّ معلومات كثيرة، إن "وسيم" ظهر في مصر ومعه "حسن الإسلامبولي"، أريد تحريات عن هذه الجماعة وعن علاقتهم بها.

راح "شريف كوتة" يهمّ بالانصراف، استوقفه "علاء" قائلًا:

- ضع هذه المعلومة في بالك جيدًا، الجماعة لا تعطي ثقتها لأحد إلا إذا تأكدتْ من إخلاصه وبراءَتِه وقوةِ ذكائه وسرعة بديهته.

يضع يده على وجه "شريف كوتة" مداعبًا إيّاه مرددًا:

- مثلك أنت يا شريف.

ابتلع "شريف" ريقه بصعوبة بالغة، قائلًا:

- تحت أمرك، أنا في خدمتك.

- انتظر يا "شريف"، اترك لي هذه الصور على المكتب، وأكمل عملك، ولاتنس طلبي، اذهب أنت الآن.

قام "علاء" بإخراج هاتفه ثمّ طلب "عباس" مرشد أمن الدولة وكاتم أسرارها، معروف عنه حُبّه لمبارك وأسرته، شهد على أيديهم ثراءً دون غيره من المرشدين، هو والد "رجاء" و"منصور الأسمر"، يقوم بعمله على أكمل وجه.

وراح "علاء"يقول له خطّته وكيف ستتم مراقبة الجماعة، "عباس" من ضمن المجموعة التي أفادت الداخلية بمعلوماتٍ مهمةٍ، لذلك تم تكليفه بمراقبة "وسيم".

خرج "شريف كوتة" مذعورًا، خائفًا من تخطيطاتهم، وراح "علاء" يقلب في الصور مرة أخرى، مُصَوِّبًا عينيه إلى صورة "رجاء" قائلًا:

- عليك ثأر بايت يا وسيم يامغربي، لن أتركك.

ثمّ خرج ليعرضَ الصورَ و المعلومات على رجال أمن الدولة الذين يقطنون معه في شقة واحدة بالعقار.

كانوا مندمجين في قرارتِ غلق شبكات التليفون والإنترنت، وبعد اتخاذ القرارات من السيادة العليا قاموا بتنفيذها، هيئتهم تشبه رجلًا عاديًا، ملابسهم عاديّة، قميص أبيض يعلوه بلوفر قطنيّ، ثم جاكيت جلد أسود، مصنوع من الجلود الأصلية، يمتلكون خصلات شعر خشنة ملفوفة، ذات ألوان بنية، إلا أن"محمد باشا" طويل وثمين، شعره مخلوط بخصلات بيضاء وصوته محشرج خشن، أما "عادلي" باشا والذي يقطن معهم هو الرجل الثاني من رجال أمن الدولة، يسكن في حجرته الرابعة داخل الشقة، دائمًا يجلس أمام الكمبيوتر يتابع نشرات الأخبار والصحف المعارضة وما تكتبه الصحف القومية مع حركات جديدة على الإنترنت.

لديه هَوَسٌ جنسيّ بكلّ أشكال النساء، ومع صدور أوامر عليا تنص على بقائهم بالمنزل، وسرعة اختفاء رجال الأمن والضباط من المظاهرات فجر السبت **28** يناير، استطاع "عادلي" أن يختلي بـ"سنيّة"، تقوم بخدمتهم ليلًا بناءً على طلب أمن الدولة، وتخدم راحتَهم، "سنيّة" لا تعرف القراءة أو الكتابة، عيناها عسليّتان صافيتان، شعرها مجعدٌ يغطيه شالٌ أسود، وعباءةٌ مزركشةٌ بخطوطٍ مستقيمةٍ، لا تشفُّ جسدَها، ويومًا ما غابت "سنيّة "بأوامر من زوجها، فأرسل "عادلي" باشا إليها لكنها رفضت وعَنَدَتْ، كانت خطة مدبّرةً من زوجها الذي يعمل بكشكٍ لتصليح الأحذية، ثم أرسل إليه ابنته "شادية" لخدمتهم بشرط أن يتضاعف مرتّبهم النصف ويصبح ألفيْ جنيه.

تفهم "عادلي" طلباتهم واستغلالهم، فلم يصدر أوامر باعتقالهم أو اغتصاب زوجته أمامه، لكنه اكتفى بهزّ رأسه قائلًا:

- ابنتك غالية على الحكومة وتستحق.

لم تختلف "شادية " عن أمها، كلاهما بجسدٍ ملفوفٍ، وشعرٍ قصيرٍ، وشفاهٍ صغيرةٍ مكتظّةٍ ومليئةٍ ومحمرّةٍ، وعيناها سوداوان مسحوبتان مع رموشٍ طويلةٍ، وراح "عادلي" إلى المطبخ ليسألها محاولًا الاحتكاك بمؤخرتها وبيده سيجارته قائلًا:

- من أين أنتِ يا شادية؟

- من الشرقية يا بيه.

- وهل كلّهم طعمين مثلك هكذا؟

- لا أعرف يا بيه.

لَمْ تفهمْ "شادية" ما يلمح إليه "عادلي"، غشيمة لا تعرف شيًا عنْ أمن الدولة، حتى أمّها لم تنصحها من "عادلي" باشا، ثم أغلق"عادلي" البابَ عليهم، وهو يمسكها من جسدها لكنها تحاول الإفلات منه قائلة:

- اتركني يا بيه، اتركني، حرام عليك يا بيه، خطيبي إذا علم سيموت فيها، اتركني يا بيه.

صراخُها لم يهزّ شعرةً من إحساس "عادلي"، وبعد أن تملّك منها، بدأ بتقبيلها من شفتيها حتى عنقها، وهي تصرخ، كان ردّ فعل "علاء" و "محمد باشا" الغمز بينهم، فقال "علاء":

- من أين يأتي بنفس لهؤلاء الفلاحين؟ كيف يستنشق رائحتَهم؟ لا أعرف.

- هذه عادته، اتركه لذاته ربما تنفك عقدته، وتنفك عقدتنا وعقدة الشعب الجبان.

اكتفى "عادلي" بتقبيل "شادية"، وخرج قائلًا:

- أريد فنجان قهوة مضبوطة وتعالي على الغرفة.

بكتْ شادية كثيرًا، وتركت المنزل عائدة إلى منزلها، وراحت أمّها تلطم على وجهها قائلة:

- حدّ يقدر يُقف أمام الحكومة؟

فأسرعت "سنيّة" إلى هناك، وهي تقبّل قدم "عادلي" باشا، تعتذر له باكيةً، فسامحها وطلب منها فنجان القهوة من يديها.

أعدّت "سنية" الفنجان، فردّ قائلًا وحاجباه مضمومان:

- اتركيها عندك.

تضع شفة على أخرى مردِّدَةً:

- حسنًا.

اقترب منها وراح يحطُّ باقي شهواته في"سنيّة"، وهي تصدر تأوهات عالية، راضيةً لكن قلبها يتمزق، لا تستطيع التصدي لأمن الدولة، جربتها مرّة فلم تنلْ إلا قسطًا وفيرًا من الاعتداءات الجنسية عليها، فقررت أن تفعل مع الباشا وتؤدي طلباته طالما أنها تأخذ مالًا يكفي وزيادة.

انتهى "عادلي" من نزواته وخرج، لملمتْ "سنيّة" شعرَها، وراحت تبصق عليه.

جلس "عادلي" كعادته على الكمبيوتر، وهم يتابعون نشرات الأخبار، وانتفضوا الثلاثة بعد إشعال النار في سيارات الأمن، وراحوا يقومون باتصالاتهم، وبعد قليلٍ خبر عن إشعال مقرّات الحزب الوطنيّ وسرقة ما فيه من أثاث فقال"عادلي" وهو يصرخ:

- نهايتنا اقتربت على أيديهم.

جاءت الاتصالات تأمرهم بالتزام أماكنهم، ينتظرون الأوامر، لكنّهم ما زالوا مراقبين حالة اشتعال الأماكن، والكاميرات ترصد بالخارج المظاهرات بعد أن وصلتْ إلى مليون متظاهر يهتفون "لا لمبارك "، "لا لمبارك"، "ارحل مش عايزينك" وتوحَّدتْ صفوفهم.

فقام "عادلي" بقراءة الفاكس قائلًا:

- "التزموا أماكنكم، الجيش سيتولّى الأمر، والرئيس مبارك يحاول السيطرة عليهم، بعد قليلٍ سيعلنُ كلمته إليهم في خطابٍ على القنوات الفضائية المصرية"، وردّ "علاء الجندي" وهو يشعل آخر سيجارة بعلبته:

- ماذا سيفعل الجيش؟ سيطبطب على الشعب.

فردّ "عادلي":

- هذه خطةٌ مدروسةٌ لتهدئةِ الشعب.

كان الوقت المناسب لعرض صور "شريف كوتة" عليهم، لكي يتخذوا الأوامر والقرارات المناسبة، كانت قرارتهم سوطًا وجَلَّادًا لا يحمي،

ضرباتهم معلّقة على أجساد الشعب، فقال "عادلي" بعد أن اعتدل مزاجه:

- هتقع في إيدينا يا "وسيم"، لا تستعجل هكذا.

أمّا "محمد باشا" راح للبار بعد أن تعكّر مزاجه ممّا سمع وعاد بيده كأسٌ قائلًا:

- أليس هذا هو "وسيم"؟ أتذكر أنه سرق سلاحك الميري؟

موجّهًا كلامه للضابط "علاء الجندي" مكملًا حديثه:

- ضاعت عليك الترقية التي كنت ستحصل عليها.

نظر إليه "علاء" نظرة شرٍ وخبثٍ قائلًا:

- غدًا السلاح سيبقى في حوزتي.

شعر "محمد باشا" أنّ مداعبته كانت سببًا في حزن الضابط "علاء"، لكنه لم يبال وحاول إعادة جو المرح قائلًا:

- ما أخبار الخادمة يا "عادلي"؟

ابتسم "عادلي" قائلًا:

- لمْ تُوَجِّبْ هذه المرة.

انقطع كلامهم على خطاب الرئيس يوم الجمعة مساء 28 يناير بإقالة حكومة "نظيف"، وتعيين "عمر سليمان" نائبًا للرئيس، فوصف "عادلي" خطاب "مبارك" قائلًا:

- حاوَلَ الإفلات منهم.

obeikandl.com

فردَّ "علاء الجندي" قائلًا والابتسامة تعلو شفتيه:

- إسرائيل لم تكن قليلةً أن تضع ثقتها فيه، هو الذي يدير عملياتها داخل مصر.

لكنّ "محمد باشا" قال:

- بلاش الكلام ده، يكفي أنّنا نحصل على مرتبٍ لم يحلم به أحد، وكل شخصٍ فينا يمتلك شقة وشاليه وسيارة، إذن أين الفقر الذي يتحدث عنه الشعب، إذا تنحى مبارك سنضيع، ويمكن أن تتم محاكمتنا.

- الرجل له فضلٌ كبيرٌ على إسرائيل وأمريكا وعلينا، تصديره الغاز لإسرائيل، الأراضي التي نسكن عليها، همّ شوبة ثورة وزعل وينتهي الأمر.

فقاطعه "علاء الجندي" قائلًا:

- ألم ترَ ما فعلوه اليوم في مقر الحزب الوطني من حريق؟ الشعب اتغير، جميعهم يدٌ واحدةٌ، الرئيس لم يضع في باله إقالة الحكومة، الشعب جعله يقيل "نظيف" بعد أن كان سنده وذراعه الأيمن.

- أنت معنا أم مع الشعب؟

هذا ما قاله "عادلي" ضاحكًا، فرَدّ "علاء الجندي" من غير أيّ إشارة أو ابتسامات:

- لَمْ يغظني إلا "وسيم"، مصيره يقع في يدي، لن أرحمه.

- لا تقلق يا حضرة الضابط هذا هو عملنا، "وسيم المغربي" و"حسن الإسلامبولي" ومن معه سيقعون قبل أيّ عملية تخريبية.

ثم تابعوا خطاب الرئيس.

* * *

في أيام الثورة 26 و27 و28 يناير، قامت "رجاء" بإمداد "وسيم" بالطعام وجميع أنواع الجرائد كما طلب منها داخل أروقة المحل.

ازداد وقتَها التجمّعُ يومَ 28 يناير جمعة الغضب، اشتدّ فيها الحصار، وامتنعت حشود المتظاهرين عن أداء الصلاة، فعلى أرصفة الشوارع اصطفوا للصلاة وراحت قوات الأمن تطلق خراطيم المياه صوبهم، صمدوا، منهم من فرَّ، ومنهم من تصدى للمياه بضم قبضة يده، أيام لن تنسى في التاريخ.

قوة وبسالة المصريّ أرهقت قوات الأمن، استولوا على الخراطيم وعلى العربة، تلقى فيها رجل الأمن ضربًا مبرحًا، وجهت فيها الخراطيم نحوهم، انتهت الصلاة.

كلُّ مصريّ يعانق يدَ القبطي في مسيرة واحدة، عبروا من مجلس الشعب وصولًا لميدان التحرير، هتافاتهم واحدة، وجوههم ثوريّة، رائحتهم نقيّة، عيونهم لامعةٌ تشبه عيني صقرٍ حادّ في انتظار القبض على فريستهم من رجال الأمن المركزي.

يتصدون لنبابيتهم المشهرة، خطوات أقدامهم قوية، مدبّبة، رنّانة، وكأنّهم رجال جيش في مسيرتهم، أوامرهم نفّاذة.

اقتربت "رجاء" ومعها "وسيم" بالقرب من باب المحل داعين لهم بالنصر، عقارب الساعة تجري مع أصواتهم، انتهزت "رجاء" وجود المتظاهرين بالخارج وراحت تُرَتّبُ المحلّ وتلملم الصّحون بحقيبتها الصغيرة، فقد أخفتها من منزلها، تُسَلّيها حكايات "وسيم".

راح يصف لها كرهه للنّظام، نوَّر عقلها بمعلوماتٍ عن انتحار شباب وفتياتٍ من الفقر، أُمٌّ تقتل ابنها الوحيد، عندما سألته عن السبب قال لها في أسى وحزن ويده تلملم معها الصحون:

- الخوف والفقر سيطرا عليها، شلَّا حركتها، وبعد غلاء الأسعار التي أصدرتها حكومة نظيف، لَمْ تجد من يعولها هي وطفلها فقتلته وانتحرت.

سقطت الصحون منها أرضًا، وكأنّ رصاصةً أصابتها بقدمِها، لكنّها ما زالت تنصت إليه بشدّة، حكايات "وسيم" أثرت على "رجاء"،جعلتها تكره النظام، وتخشى عليه من رجال الشرطة وأمن الدولة.

لا يوجد بين أروقة المحل سوى هو وهي، هي تسمع حكاياته وترتّب المحل، وهو يلملم ما سقط منها من صحون، سمعت أصوات غربان سوداء تحوم حول المكان فانقبض قلبها، وداهمتها أصوات المتظاهرين، استغلّت الفرصة وراحت تهتف، توحدت أصواتها بأصواتهم، ابتسم إليها "وسيم"، فذابت أصواتهم مع ذوبان أصوات الخارج، "يسقط يسقط حسني مبارك"، "يسقط يسقط حسني مبارك".

خطَّ الغروب بأشعته على الأرض، ليحلّ الليلُ مكانه، كانت "رجاء" ومعها "وسيم"يتلقَّيان أعنف الضربات على باب المحل.

يختبئون خلف عقار "الوردة الحمرا" يحتمون بقطعٍ من الصاج على هيئة إسطوانة فولاذية، رائحة الدخان تتصاعد، ونيران مشتعلة في سيارات تبعد عن المحل بأمتارٍ، هتافاتهم مستقيمة ومتتابعة يطالبون مبارك بالرحيل، تداخلت معهم أصوات الأبواق وهي تعلن حريق الحزب الوطنيّ.

سمعتها أكثر من مرة، أصواتًا واضحةً قويةً تشوبها نبرة فرحٍ، كانت "رجاء" تستمع إليها ثم تنقلها إلى "وسيم" بصوت منحفض وهادئ. ظهرت قوات الجيش أمام الإذاعة والتليفزيون لحمايته وحمايةالمتظاهرين في الليل، ملابسهم صافية، وأعلام مصر تتوسط أيديهم، حتى سيطروا على الموقف.

استراحت "رجاء" على المقعد فَرِحَةً و"وسيم" يتخللها بنظراته، قاطعتهم لحظات الصمت بأبواق عم "شوقي"، وأصوات عويلٍ وصراخٍ من أهالي المكان يرددون:

- إلى أهالي الحيّ، التزموا بيوتكم، راقبوا أطفالكم من أعمال البلطجة ومرتادي السجون، هم على وشك الوصول بعد أن استولوا على سيارات الأمن وهربوا بها، أُحْرِقَتْ سجونهم، وراح يكرر "إلى أهالي الحيّ. .....".

انتفضت "رجاء" ويدها تحوط قلبها، فاقترب إليها "وسيم" يطمئنها، وقع عليهم خبر هروب السجناء كالصاعقة، فاستندت ثم انطرحت على المقعد بهدوء، قدمها ترتجف، يدها باردة، ثم نهضت من المقعد مسرعة وهي تردد:

- لا بد أن أرحل الآن قبل أن يصلوا إلى منطقتنا.

- لا يا رجاء، الأمور خطيرة، استريحي فوق في الطابق الأعلى، أنا سأتولى أمر الحراسة، وفي الصباح عودي للمنزل.

- لا أستطيع الجلوس أكثر من ذلك، الخراب يزداد أكثر، أنت لا تعرف من هم بلطجية السجون والشوارع.

وقفت وراحت تشرح له بصوتٍ عالٍ:

- أُمٌّ تحرس ولدها من الموت، انعدام المشاعر، قتلٌ ونهبٌ وسرقةٌ، قُطَّاع طرق لا يعرفون الرحمة، اغتصابٌ واشتعالُ الحرائق، خوفٌ وارتباكٌ، عدمُ الشعور بالأمان.

استفزّت "رجاء" "وسيم" فألقى بالمقعد بعيدًا صارخًا:

- كفى.

تقابلت عيناها بعينيه، واندس برأسه على ركبيته، غلّف المكان قطرات من الصمت وراحت تقول:

- أنا آسفة، لكن لا بد أن تفهم أنني ...

رفع رأسه لأعلى ببطءٍ متسائلًا:

- أنك ماذا؟

استنتدت على الخزينة موجهة ظهرها له، ممتنعة عن الإجابة، وكأن شفتها شُلت عن نطق كلمة "خائفة عليك"، وضاعت القواميس في ترجمة أحاسيسها وحبّها له، دارت الأفكار برأسها، تذكرت آراء "منصور" ووالدها، تذكرت عضلاته التي لا ترحم من يتهكّم على مصر، أو على رئيسه أو عليها، توقعت ردّ فعله تجاه "وسيم".

فاكتفت بسماع حديثه وحكاياته ورؤيته والحديث معه، فماذا تطمع لأكثر من ذلك؟

لم تنس أهلها، وحياتها، وطريقة معيشتها، هي ابنة شهادة الدبلوم بلا زيادة أو نقصان، لم تكمل تعليمها، وبماذا كانت تحلم وكل حلمها

الزواج؟ لاتعرف للحياة طعمًا، شعرت "رجاء" منذ وجود "وسيم" بحياتها، أن أحلامها تغيرت وأن حبها للوطن صار يجري في عروقها، منذ الصغر وهي لا تعرف إلا العمل، بعد أن أنهت شهادتها اجتمع والدها أن تعمل لتتحمل المسؤولية معه، قررت العمل وهي رافضة كل ما يحدث لها، ظنت أن يأتي من ينقذها منه، وبيومٍ ما كان الوقت متأخرًا، لم تعرف للراحة طعمًا، وجدت والدها أمام الحارة، اندهشت، كتمت صرختها، شرحت له أن أصدقاءها حاولوا الحديث معها في أمور مهمة فتأخرت، لم يقتنع، أخذ السَّوط وراح يضربها في كل مكان بجسدها، لم يرحمها، هي الآن لم تشعر بخجل أو خوف مع "وسيم".

لكن والدها بحاجة إليها، أما "وسيم" ليس فارسًا أو منقذًا لها منهم، مكانها لا يحتمل الوقوف أو التحدث معه، مكانها مع المتظاهرين، تنهي حالة البيروقراطية والظلم والفوارق الاجتماعية وتحقّق العدالة الاجتماعية.

أكثر ما يفرق الحبيبيْن ليس الخيانة ولا الأنانية ولا الموت ولا الظلم ولا برودة المشاعر فقط، أكثر مايفرق حبيبيْن هو الفقر والجهل، هذا ما دار بين "رجاء" ونفسها في بضع لحظات صامتة، فضولية ل- "وسيم"، مكانها بالخارج مع الشعب لتغسل همومها من "وسيم" ومن "والدها" ومن شقيقها، من حياتها بأكملها، إما ستخرج برجعة وإما بغير رجعة، وإما تستشهد أمام عتبات المحلّ، متجهةً إلى الباب، هكذا نطقتها "رجاء" بقوّة بعدما تكرر سؤال "وسيم" مرات، ليسرع من مكانه خائفًا عليها، متجهًا إليها بلهفة، فيبقى الباب فاصلًا بين حبّهما مردّدًا في تكرار:

- إن ماذا؟ إن ماذا؟

أخفت دمعتها الصغيرتين من مقلتيها بأصابعها الرقيقة:

- إن تختفي من هنا غدًا.

أغلقت الباب بقوّة لا متناهية ورحلتْ، عائدةً إلى البيت بحذرٍ وترقبٍ في طريقها، وصلت باطمئنان، أهل الحارة يهللون، يهتفون، يطالبون بسقوط النظام، الأنوار تغلف الحارة من بداية الشارع الرئيسي وحتى نهاية الزقاق، يقف عم "زهدي" محشورًا بين أهل حارته، الأغاني الوطنية تطربهم، تشعل حماسهم، يتبادلون أكواب الشربات بالقرب من محل البقالة، صنعوها خصيصًا للاحتفال ببسالة الشعب، زغاريد رنّانة تخرج من شفاههم.

وقفت "رجاء" مع عمّ "زهدي"، ألقت عليه السلام، فراح يربت على كتفها بحنية، ثم أعطاها خطابًا قائلًا:

- خذي هذا يا "رجاء"، هذا الخطاب شخصٌ تركه، وطلب مني أسلمه لك حالًا.

بانت علامات الاستغراب على وجهها، وراحت تفتح الخطاب، صاعدة لمنزلها، متجهةً في خطوات هادئة إلى حجرتها، ردَّدت ما في الخطاب وعيناها تحدقان بشدَّة مع السطور:

– "السلام عليكم"

بوركتِ يا أخت "رجاء"، الأخ "وسيم" أطلعنا في خطابه على مكان وعنوان ا لمحل، ووقوفك بجانبه، وتستر عليه من رجال الطغاة والظلم،

أنتِ منضمة معنا في الجماعة الإسلامية، لقد نجحتِ في الاختبار، نحن في انتظارك.

إمضاء

مجاهدٌ في سبيل الله

هربت الكلمات من شفتيها، عادت لقراءة الخطاب مرة أخرى، صرخت ثم كتمت صرختها من الذهول:

- جماعات إسلامية!

وقفتْ لبُرْهَةٍ تنظر إلى الخطاب، تتأمل كلماتِه، هي تعلم أنها محافظة، تأثرت بقريبتها التي تقطن في السعودية، أقنعتها أن ترتدي النقاب، ووافقت لأن والدها يغدق عليهم بأموال كثيرة، شعرت أيضًا أنّ الفكر السعوديّ يتناسب كثيرًا مع شخصيتها، لكن ماذا عن الجماعات الإسلامية؟ ولماذا يريدونها لتنضم معهم؟ شعرت برهبة كبيرة، قلبها يخفق بشدّة، أغلقت الخطاب ثم وضعته تحت وسادتها.

* * *

أخطأ "وسيم" في شعوره، عندما ظن أن "رجاء" تود البقاء معه، أو تخشى عليه، لا يفهم ما يدور في خلجاتها، هو غشيم في هذه الأمور، حتى الآن لايعرف كيف تصرف معها بجرأة منذ بداية رؤيتها، لا يعرف شيئًا عن الحب أو الأحاسيس، حركاته التلقائية تدفعه للتصرف معها بشكلٍ عفوي، علمته الجماعة أن يكتم شهوات الحب والإحساس، حتى رغباته لا يعلن عنها،

شعر للحظات بدوارٍ وصداعٍ لا يريد الرحيل، أعصابه مشدودة، ثم عاد سريعًا إلى صوابه، تمالك نفسه، وذابت حالة الإحباط، لم ينسَ وسيم المهمةَ التي كُلِّف بها، تذكر الجنّة التي يطمح إليها، والاستشهاد في سبيل الله، عليه أن ينهيَها، فتعود البلد إلى حالتها الطبيعية، مستقرةً، آمنةً، وأن ينهي حالة الظلم التي شعر بها بعد غَلْقِ المعابر، تذكر في لحظاتٍ العمليات التي قام بها مع الجهاديين الأفغان، وكم من المرات اعتُقِل فيها، ولأن هذه الذكريات راحت تطارده بين حين وآخر، راح يخيّر بين "رجاء" ومصر، كلاهما أنثيان، لكن الاختلاف يكمن كما يكمن بين الروح والجماد، كفّتهما سترجح، من يختار؟ "رجاء" التي لا يعرف ما يجول بخلجاتها؟ أم مصر التي نُهِبَتْ ومات آلافٌ من أبنائها في مظاهرة من أبناء شعبها؟ سترجح كفّتهما بالربح أم بالخسارة؟

في منتصف ليل الجمعة 28 يناير مع انشغال طبقات الشعب وطوائفه بخطاب مبارك، توقفت دراجةٌ ناريةٌ تحمل شخصيْن وجهاهما محاطان بشاليْن قطنيّين، لم يظهر منهما إلا عيونهم السوداء، ملابسهم البيضاء كالملائكة، يلتفتون حولهم، اتّجهوا للمحل، وبطرَقَاتهم البسيطة على الباب، انتفض "وسيم " مذعورًا، عادت الضربة الثانية لكن دون

جدوى، لم ينطق "وسيم"، حتى أنفاسه كتمها، تليها الخبطة الثالثة مع صوت هادئ وقور:

- يا أخ وسيم...

اقترب "وسيم" من الباب وبيده ماسورة حديدية.

أنا "حسن الإسلامبولي"، يا "وسيم".

عاد الدم يضخّ بوجه "وسيم "بعد أن تجمدت عروقه، وراح "حسن" يفتح باب المحل، ولأن الشوارع اقتربت من الهدوء الكامل، أحدث الباب صوتًا خشنًا، أقلق عم شوقي، فراح يطل إلى أسفل، لمحهما، ظنّ أن البلطجية اقتربوا لسرقة المحل، تناول بيده عصا كبيرة، ثم نادى على "مرسي العادل" حارس العقار، انطلقت الدراجة مسرعة في شوارع القاهرة، ففشلا في اللحاق بهم.

ضرب "شوقي" كفًّا بكفٍّ وهو يستغفر قائلًا:

- نصيبهم الهروب منّي.

طمأنه "مرسي" قائلًا:

- الحمد لله، اطمئن ياشوقي، لحقت بهم قبل أن يسرقوا شيئًا بالداخل، القفل كما هو.

أغلق الرجلان المحلّ مطمئنَّيْن، يستمعان إلى خطاب الرئيس في هدوء وحزن.

* * *

السبت 29 يناير، يوم فوضويّ، غير منتظر، لكن متوقع، تتوسطه عواصف الخوف والذعر بقلوب المواطنين، لم تُشْهَد شمسه، ولن يخرج قمره، رياحٌ شديدةٌ، قوى متهالكة، الأمن مستتب لإجهاض المتظاهرين، يترقبون ما سيحدث مجدّدًا، مفاجآت تنتظرهم، نبابيتهم وأسلحتهم مشهرة، وقنابلهم المسيّلة للدموع تنتظرهم، مطروحين أرضًا، مُضْرِبين عن الطعام.

خطاب "مبارك" صاعقة عليهم ترتعش لها الأجساد، عيونهم مجهدة، لم ولن ترى النوم إلا برحيله.

تساءلتْ "رجاء" كيف سيكون الحوار بينها وبين "وسيم"؟ فقد أخذتها قدمها ناحية محلّ الملابس، ولماذا لم يطلعها من البداية على هذه الجماعة؟ تخبط الأسئلة برأسها، لم تشهد نومًا، تلعن حظّها، أم تشكر ربّها؟ أين سيعصف بها القدر؟ وماذا سيضع في طريقها من حواجز؟

راحت كعادتها محملة بأصناف الطعام، وجرائد معارضة ومستقلة قد طلبها "وسيم" منها، وصلت بسلام عند عتبات المحل، المتظاهرون يبعدون بأمتارٍ، متفرقين على أرصفة الشوارع وبالحدائق، عيونهم نصف مغلقة، كأنهم بمعتقل، أجسادهم مهلكة، وخصلات شعرهم محملة بذرات الأتربة، وحالة البؤس تتسلل من وجوههم، هي أيضًا تشاركهم نفس البؤس.

رآها عم "مرسي" فألقى عليها تحية الصباح، مفترشًا جرائده بحزن، وقد شهدت صحته ضعفًا حادًا لنقص مخزون الطعام من البلد.

المحل كما هو، لا جديد، ولم يتحرك شيءٌ منه، مدّت يدها تبعد عنها ستاندات الملابس، تبحث وراءها عن "وسيم"، صوتها عالٍ، ببطءٍ تنادي عليه:

- "وسيم"؟

لم تجدْ إجابة، لم يوجد أثرٌ له، فتحت الصندوق، لا شيء داخله، جلست على الخزينة، فرَّغت محتواها، لم يوجد خطاب أو رسالة، صعدت للطابق الثاني دون فائدة، راحت تبحث في البروفات، لم تجد أحدًا، جلست على سلالم مؤدية للطابق الأعلى من المحل، يدها على وجهها، تفكر، ظنت أن البلطجية افترسوا المحل، أو انقضوا عليه، تراجعت متسائلة:

- أين آثار البلطجة، البضاعة كما هي، حتى الملابس مستقرة بأماكنها.

رفعت باب المحل بشدة، تسأل "مرسي" وبطريقة غير مباشرة، إن كان رآى بلطجة أو أعمال سرقة تجاه المحل، فردّ نافيًا إن كان رأى أحدًا منهم يقترب.

ابتسمت "رجاء" تخفي تحت شفتيها حزنًا بالغًا، راحت تخرج الخطاب من حقيبتها، تذكرت مكانَه، إنه تحت وسادتها، يا لحظها السيء! ابتعدت خطواتٍ ناحية المحل، نادى عليها "مرسي" مقتربًا منها وهو يعرج، قائلًا:

- يا "رجاء"، تذكرتُ شيئًا، أمس كنت نائمًا.

بغضب:

- ادخل في الموضوع، ماذا تودّ أن تقول؟

- أريد أن أطلعك أنّ أمس قُرْب الساعة اثنين من مساء الليل، خرج رجلان أو ثلاثة يرتدون أبيض، لحاهم طويلة، كانوا على وشك سرقة المحل، لكنهم فشلوا، وبسرعةٍ بالغةٍ قفزوا على دراجتهم النارية واختفوا في الظلام.

لَمْ يكمل "مرسي" كلماته حتى اصطدموا باقتراب المتظاهرين منهم، فأسرعوا بإغلاق المحل.

اعتقدت "رجاء" أنها سببٌ كافٍ لرحيل "وسيم" متذكرةً ما قذفته به من كلام، كانت قاسيةً معه، أم أن رأيها كان يحتمل الصواب؟

أممنوعةٌ هي من الحب؟ ممنوعةٌ من رؤيته ثانيةً؟ ممنوعةٌ هي من سماع صوته وحكاياته وقصصه التي تشبه قصة الأميرة وسط الأقزام؟

فهلْ مِن الممكن أن يعود؟ وكيف؟ ولمن يعود؟

ارتجفتْ قليلًا، مَن تلوم؟ هل تلوم القدر؟ أم تلوم نفسها على مكوثه بالمحل؟

خطوات قليلة ويقترب المتظاهرون، اندسّت معهم، هكذا طالبها القدر، أخذتها قدمها إليه، راحلةً، صارخةً، مقررةً من غير إجبار، مكسّرةً كل الأوامر العرفية، وما سيفعله رجال الأمن من ضربٍ مبرح وآلام قاسية، فالقلب لا يزال ينبض باسمهِ، والذنب ليس ذنبها، هتافاتها توحدت معهم:

- امشي،امشي،امشي، مش عايزينك.

انقض رجال الأمن على فرائسهم، وقنابل المولوتوف تقذفهم من كل جانب، تفرقهم، آلاف الجرحى يتلقّون العلاج على أرصفة الشوارع، عربات الإسعاف مليئة بالقتلى، دماء متناثرة في كل اتجاه، من يقع تحت رحمتهم لن يُرْحَم، ينقضون عليهم، اعتقالاتٍ يشهدونها دون ذنب.

راحت "رجاء" تبحث عن "وسيم" وسط مليونيْ متظاهر، تهتف بسقوط النظام، يغطي وجهها النقاب يظهر عينيها، دائمًا ما تشبه "رجاء" "شريهان"، حركتها، ضحكتها صافية، خالية من فساد أو ظلم، اجتمعت كئوس الحنان لتروي جسدها وعقلها، رقيقة هي، خطواتها بسيطة غير متكلّفة، تكره البهرجة والأنوار، تعيش على أضواء الشموع، تتلاعب مع الفراشات والعصافير، تكره تغريد الغربان، هكذا هي "رجاء".

فوجئت برجال الأمن المركزيّ يحاوطونها، تَبْعُدُ عنهم فيطيحون بها كمياهِ بحرٍ تغدر بغواصِها، ألسنة المتظاهرين تُصْدِرُ لهيبًا واحتجاجًا على خطاب مبارك.

عاد رجال الأمن بإلقاء القنابل، أصابت عشرات الجرحى، احترقت عيناها، دموعها تنساب من مقلتيها الصغيرتين، وقعت أرضًا من شِدّة السَّحْب، يسحبونها كصيّاد يسحب غزالته الرقيقة، فسقطت أرضًا كطيرٍ جريحٍ، تصرخ:

- اتركوني، اتركوني.

كانت تتوجع دون فائدةٍ، حاول المتظاهرون إنقاذَها، حتى تلقوا ضرباتٍ على رئوسهم، جذب رجالَ الأمن جمالُها، ونبابيتهم على رأسها وجسدها، وحوش بأنياب قوية، كأنهم آكلوا البشر، انسالت دماؤها من

عنقها فتصل إلى مكمنها، تحوّل رداؤها إلى بركانٍ أحمر، لم ترحمهم صرخاتها ودماؤها لم تشفق عليهم.

راحت تتسلق على أقدام متظاهرٍ يحاول إنقاذها من قبضتهم، دافعت عن نفسها، حاولت الإفلات منهم، لكن عادت ذات اليد القوية تمسكها، لم ترحمها، تطلعت "رجاء" بعيونها إليه، وراحت ترفع واقيه دون تعمد، بل دفاعًا عن جسد أنثى تلتهمه الذئاب، وما إن تبينت ملامحه، صارخة، صرخاتها أرعبت المتظاهرين مردّدة:

- "منصور"! أخي؟!

وقف "منصور" محدقًا بعينيه، وتوسّطهم رئيسه ضاربًا على كتفه: اضرب يا عسكري.

نظر "منصور "إليه، وراح الضابط يشد "رجاء" من أطراف ملابسها، يأمره ثانيةً بغضب:

- اضرب، اضرب.

صرختْ رجاء، دماؤها متناثرةٌ، قالت له:

- اضرب يا أخي، اضرب.

احتشد المتظاهرون حولها، يحاولون إنقاذها، وقد خلع الأمن عنها النقاب.

أخذ النَّبُّوت برفقٍ ينزل على جسد "رجاء"، ضرباته متقطعة، ودموع كثيفة، شعرت أنّ الكرة الأرضية تتحرك،وكأن لم يوجد إلا هو وهي، انسحبت قدمها من بساط أحمر يكسوه الدم، هي بالجنّة، تراه كجسدٍ

مشويٍّ بنارٍ ملتهبةٍ، يكسوه اللحم فينزوي متساقطًا مرةً أخرى من كثرة الظلمِ.

أيّ دماءٍ ثائرةٍ تثأر لها؟ ماذا ارتكبت "رجاء" مع القدر؟ ومع "وسيم" ومع شقيقها "منصور"؟ هل جُرْمُها أنّها فتاةٌ مصريةٌ تطالب بحقّها في العَيْش؟ أم أن واجبَها الوطني هو ما دفعها للنزول مع المتظاهرين للحفاظ على أرضها من المعتدين، باحثةً عن "وسيم" ليشاطرها حقهم.

لن ولم تختلف "رجاء" عن غيرها إلا في حبها للوطن، أن تشارك المتظاهرين تظاهراتهم، قلبها الأبيض لايعرف خبثًا أو نهبًا، لا تعرف أحدًا، ولا أحد يشاطرها وحدتها غير "وسيم".

رفعها من أرض الوِحدة لجَنّة الحب التي لم تكتمل، عقلها المستنير دفعها رافضةً عدوًّا ظالمًا حتى وإن كان شقيقها "منصور"هو العدوّ الأول.

أيّ دهشة وذهول يمنعانها من تقبل الموقف؟ دماؤها متناثرة كنافورة بركان اخترقت جسدها، لتتبعثر كأشلاء إيزيس وأوزوريس، وقف المتظاهرون دون رَدّة فعل، صعقتهم القرابة، حتى أصاب "منصور" الشلل، نعم.. شلل نصفي.

سقطت على إثره "رجاء"، انكتم صوته وتعوّجت شفتاهِ، أيّ ظلمٍ هذا يضع أسلاكه الشائكة بين "منصور" و"رجاء"؟

أصوات الأدعية تخرج من شفاه المتظاهرين، فكيف للتاريخ أن يضع بين دفاتره ما فعله "منصور" بـ"رجاء"؟ إنه لخزيٌ وعارٌ.

شقيقان ينشقّان ويفترقان، حتى خرجتْ صرخات من زملائه، مستنجدين برؤسائهم يعلنون عن خطورة حالته.

التفَّ رجال الأمن حول المتظاهرين من جديد، وراحوا يضربونهم، بعد أن اتجه "منصور" منقولًا داخل سيارة الإسعاف، تاركًا "رجاء" بين أيدي المتظاهرين يحملونها في انتظار قدرها.

* * *

" تم تهريب بلطجية السجون بأمر من أمناء الأقسام ورؤسائهم، وتبين أن أعمال السلب والنهب التي حدثت مساء أمس من مخبرين أدلوا باعترافاتهم وقربهم من النظام".

بثّت الجزيرة أخبارها تلك، في صباح الأحد **30** يناير، الشوارع يكلّلها الهدوء حتى الثانية صباحًا، الأطفال يلعبون، راسمين بالطبشور على أرضية الشوارع، وكرة القدم تتقاذفها أرجلهم في كل مكان، أطفال أبرياء، لا علاقة لهم بما يحدث، عقولهم مغيّبة عما يحدث، تملؤهم البهجة، ملابسهم جديدة.

فوجئ أهالي الحيّ بمنطقة شبرا بالقرب من أبراج ساويرس، صرخات مدوية، تخترق حاجز الهدوء، وحوائط الجدران وشوارعها.

هجمت عليهم عرباتٌ يكسوها زجاجٌ أسودٌ داكنٌ، أشخاصٌ يحملون أسلحةً وقنابلَ، وجوههم مشوّهة بخطوط عريضة في كل اتجاه، قلوبهم متجمّدة، متحجّرة، ملابسهم سوداء، رائحة البانجو تخرج من أفواههم.

انهالوا ضربًا على الأطفال، أمهاتهم تصرخ في كلّ مكان، سرقوا مجوهراتهم و أثاث وخزائن منازلهم، ثم راحوا يلقون قنابل فيثيرون الرعب بينهم حتى هربوا فارّين يستنجدون بالأمن، يتخبطون، اشتبكوا معهم والرصاصات تصيبهم، قتلوا طفلًا فسقط قتيلًا، دماؤه أعلى رأسه، صرخت أمه تحاول اللحاق به، تمنت لو عاد إلى رحمها ثانية وألا تراه قتيلًا امامها، وضعت أصابعها على رأسه، تمسحها بملابسها.

تتقاذف ذرات التراب بيدها، تلطم وجهها بها، رصاصٌ يتناثر في كل مكان، لم ينجحْ أحدٌ في التصدي لهم، راحوا ينتقلون في مناطق القاهرة وأنحاء مصر، ينشرون الخوف والذعر بين الناس، فيقتلون من غير حساب.

مجزرةٌ هي؟ نعم إنها مجزرة ضحيتها آلاف الشهداء على أرض مصر، التفُّوا حولها يسحبون طفلها من أحضانها، منعتهم صارخة، تستحلفهم أن يتركوه.

لم تنجب منذ عشر سنوات، كان معها بالمنزل، فهجموا عليهم رافعين أسلحتهم، تصرخ، تقبّله من شفتيه حتى رأسه، تبقي نفَسًا بسيطًا يخرج منها حتى الليل، ظهرت معه النجوم لتنير قلبها، ودماؤه تلمع على تراب بيتها.

* * *

وصل "وسيم" مع "حسن الإسلامبولي" بمكان أثريّ، في مصر القديمة، مكان يشبه في طرازه المساجد القديمة، يستعدّون لمقابلة "مولاهم"، الذي لايعرفه "وسيم"، ولم يشهد رؤيته من قبل، فرفع رأسه متأملًا المكان، مشتاقًا إليه قائلًا:

- أنا أشتاق لرؤية مولانا كثيرًا.

فرَدَّ "حسن الإسلامبولي" بابتسامة كبيرة واصفًا إياه:

- مولانا شيخ بركة، منذ صغره وهو عبد لله، يقدِّم خيرًا كثيرًا.

ثم شاور بإصبعه على بعض المساجد:

- كلّ هذه المساجد خاصة به.

وراح يكمل له:

- هذه المساجد ليست ملكه فقط، كل الفقراء يحبونه لأنه يعطف عليهم.

صعد "حسن" و"وسيم" على سلالم، قليلًا ويرى "وسيم" "مولاه"، طَرَقَا على مسجدٍ كبيرٍ، ذي مأذنةٍ كبيرةٍ، تشيّده نوافذ ملونة بألوان زاهية وزخارف إسلامية تتوسط جدران المسجد.

كان يجتمع حوله مجموعةٌ من الشَّباب، وجوههم بيضاء، صافية، يستمعون إليه، يتلهفون للشهادة في سبيل الله.

اقتربا منه، إنه "الشيخ زهدي" برداءٍ أبيض ملائكي، تشوب وجهه لحية بسيطة بيضاء، لون عينيه أخضر، نظر إلى "وسيم" باستنكار، هو يعرف "وسيم" جيدًا ويعرف ما لايعرفه "وسيم" عن نفسه، وعن كل

شخص داخل الجماعة، فطلب " حسن "من "وسيم" الجلوس للاستماع إلى الخطبة.

"زهدي" يحث الشباب على محاربة الفساد بالاستشهاد، هذه قوانين الجماعة ومن ينضم إليها لا يخرج عنها، كان يحثّهم على النزول إلى الميادين ومشاركة الثوار، وهو يشرح لهم فسادَ النظام، يصرخ ويعلو صوته في كل مرة بأن الشعب تحمل كثيرًا، ظلمًا وفقرًا وإهدارَ طاقات الشباب، هو الذي يعرف كيف يستغلها لتحقيق أغراضه ذات الفكر الوهابيّ، يتشدَّدُ كثيرًا لهم. ويتبنّى أفكارهم، يرى أن الظلم لن ينتهي إلا بالاستشهاد، يختار من لهم علاقة بتنظيماتٍ في الماضي ويتأكد من صحة اختياره، يُجْرِي اختباراتٍ كثيرة وبعد أن ينجح أحدهم في الاختبار يكون أول المقبلين على الاستشهاد، يثير حماسهم وهو يضرب لهم أمثلةً عن الجماعات الفلسطينية والأفغانية، ثم يشرح لهم طرق المقاومة ويقنعهم بسلمية الاستشهاد.

انتهى "زهدي" من خطبته، كان حريصًا على مراقبة المسجد بعد أن انتهى فيبدأ اجتماعه مع الجماعة، يعرف "وسيم" جيدًا، يراقبه، يعلم أيضًا مدى قربه من هذه التنظيمات السرية، وكيف شارك في الجهاد ضد الأفغان ومدى مساندته للفلسطينيين.

جلس موجهًا نظره لـ"وسيم" قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا أخ "وسيم". أهلًا بك معنا في الجماعة.

- يسلمك الله يا مولانا.

فراح يلمح إليه "الشيخ زهدي" قائلًا:

- لعلّ وعسى أن تكون رأيت راحةً في المحل.

يخشى من نظراته أو مواجهته ورَدَّ قائلًا:

- أنا جئت لتلبية النداء.

فنظر إليه بفرحٍ فاهمًا ما يدور بخلجاته وعقله:

- بارك الله فيك يا أخ "وسيم"، أهلًا بك معنا في الجماعة ثانيةً.

وراح الشيخ "زهدي" يلقي إليهم الوعظ والإرشاد، ويُطَهِّر نفوسهم من كل شيطانٍ رجيمٍ، ويحثهم على الاستشهاد، وحبّ الجنة، وطلبِ مغفرةٍ من الله، وأنّ كلَّ حاكمٍ ظالمٍ له نهاية، وكل حاكم جائر يستحق القتل، فدمه حلال ومستباح قتله.

وصف لهم ما سيلقاه الحاكم الظالم بيوم القيامة وأهوال يوم القيامة فقال:

- يا إخواني، أنا اجتمعت بكم اليوم لأن هدفنا واحد، هو الاستشهاد في سبيل الله، وواجبنا أن ننهي الظلم والفساد داخل مجتمعنا ووطننا، ويتقبل الله منا ومنكم كل الأعمال الصالحة، ويغفر لنا سيئاتنا.

واستكمل حديثه وهو يُسَبِّح قائلًا وبصوتٍ هادئٍ وقورٍ ورزينٍ:

- أنا قرَّرت أنّ من يقوم بهذه العملية أخوكم في الله "وسيم" لأنه شاب على خلقٍ ودينٍ، يعمل على طاعة الله، متمسكٌ بدينه وكتاب الله عز وجل، أيضًا له أصولٌ طويلةٌ مع الجماعات الاستشهادية ولم يرفض طلبًا لنا، سلوكه مهذبٌ، وشجاعٌ، هو يكره النظام الحاكم، وأمنيته سنحققها

له، موعد ومكان العملية سنخطط له ونرتب ترتيبًا جيدًا، أريدكم أن تشاركوا في المظاهرات، سنخرج من هنا الآن إلى ميدان التحرير.

ونحث إخوانكم على الصبر والتحمل ضد رموز الفساد، وضد الحكومة، والشرطة، ونمدّهم بالطعام وكل ما يحتاجونه.

مطالبكم لا بدّ أن تكون واضحةً وصريحةً، وهي نفس مطالب الشعب، المظاهرات فرصةٌ جيدةٌ لنا وللشعب المصريّ، سنحقق كل مطالبنا.

راحوا جميعهم يستغفرون بعد أن انتهى الشيخ "زهدي" من خطابه، ثم اجتمعوا للنزول في المظاهرات، وراح "وسيم" يشاركهم، فنادى عليه الشيخ "زهدي" وراح يجري مسرعًا:

- نعم يا مولانا، تحت أمرك.

فربَّتَ الشيخ "زهدي" على كتفه قائلًا:

- كان يجب على الأخت "رجاء" أن تأتي معك، نحن تأكدنا من إخلاصها وولائها ضد الحكم.

اندهش "وسيم" من كلام الشيخ "زهدي"، فلم يقاطعْه وتركه يكمل حديثه:

- أنا أعرف مشاعركم تجاه بعضٍ، وهذا سبب موافقتي لانضمامها معنا في الجماعة، لا بد أنْ تعرف يا أخ "وسيم" أن الأخت "رجاء" في محنةٍ كبيرةٍ.

ثم اقترب منه خافضًا صوته قائلًا:

- شقيقها ووالدها مع النظام الحاكم، وهي الآن في المظاهرة تتلقى العلاج، أصابها "منصور" و رجال الأمن بآلام مبرحة.

- "منصور"! شقيقها! أستغفر الله العظيم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

دبَّ الخوف بقلب "وسيم" على "رجاء"، وهو يستمع لكلام الشيخ "زهدي"، وكأنّ الأمور اتضحت إليه، وراح يسأل الشيخ قائلًا:

- "رجاء" تعلم بأنني داخل الجماعة؟

- نعم يا "وسيم"، الأخت "رجاء" كان لا بد أن تعرف.

- إذن. كيف كان ردُّ فعلها؟

وقف "زهدي" مبتسمًا وهو يردد:

- اطمئن يا أخ "وسيم".

ثم أخذه "زهدي" ورحلا مختصرًا الحديث، كأنه لا يريد لـ"وسيم" أن يعرف أكثر من ذلك، وراح يقبّل يد "مولاه" قبل الرحيل، متجهًا للمظاهرات، منتظرًا اللحظة التي ستجمعه بها، متسائلًا كيف حالها، هل ما زالت تتذكره؟

نادى عليه الأخ "حسن" مباركًا له، وصعدا على درّاجتهم النارية في صباح الاثنين 31 يناير.

ارتفعت أعلام مصر عاليةً، المتظاهرون ما زالوا محتجّين على خطاب مبارك، تصدّوا لرجال الحكومة، كادوا أن يسرقوا آثار المتحف المصريّ يوم جمعة الغضب 28 يناير، حتى أقالوا وزير الثقافة "فاروق حسني"

وعيّنوا بدلًا منه جابر عصفور، حاولوا الحفاظ على أمن مصر من لصوصها.

كانوا يوزّعون على الشعب المتظاهر طعامًا وشرابًا، ومعها أغطية قطنية تحميهم من برد الليل، ينامون على أرصفة الشوارع، وفجر كلّ يوم يستعدون تأهبًا لغدٍ جديدٍ، وهتافاتٍ جديدةٍ، لكنّ الأوامر الصادرة ليست جديدةً، أوامر سيئة وغير صائبة.

بدأ حظر التجوّل داخل شوارع وميادين القاهرة من الساعة السادسة صباحًا وحتى الواحدة ظهرًا، الشوارع خالية من الناس، أما ميادين التحرير ومنطقة وسط البلد مليئة بالمتظاهرين.

جميع المحافظات، السويس و الإسكندرية والمحلة الكبرى والمنصورة، مليئة بالمتظاهرين.

ثم يأتي الليل فيخرج معه أهالي الحى بأيديهم الشوم وخراطيم المياه، معهم أيضًا عصيان كبيرة، يناوبون بين بعضهم في فترة الصبح، وآخرون يناوبون عنهم في فترة الليل، فناجين القهوة بجانبهم، يتسامرون ويتابعون نشرات الأخبار.

اتجه "وسيم" و"حسن" ناحية ميدان التحرير، لا يخشى رجال الأمن بعد أن طمأنه الشيخ "زهدي" أن يشارك من مداخل التحرير الآمنة وهو سيلحقهم مع الجماعة إلى هناك.

أكّد له أن لا أحد سيعرفه هناك، هو يخشى الجرحى والثوار، شجاعته وذكاؤه كافيين للهروب ومشاركة الثوار، اقتربا وأياديهم محملة

بطعام، توقفوا وسط الميدان، ونظرا باستغراب، عيونهم تحدق في بعضها البعض.

المكان مليءٌ بالتفتيش الأمنيّ قبل بداية الدخول للميدان، على اليمين بوابة دخولٍ للسيدات وأخرى للرجال تتوسطهم فخاخة مفجّرة، يكشفون بطاقتهم للجيش ورجال الأمن.

تخَفَّى "وسيم" وسطهم، نظراته غير محددة، لكن ماذا لو اكتشفوا أمره أو اسمه داخل البطاقة؟ وقف أمامهم مفرود الصدر، لم يحدث شيءٌ، أقنعهم أن واجبه أن يساعد هؤلاء الثّوار ورجال مصر، خدعتهم كلماته المعسولة، حتى ربّتوا على كتفه، وسمحوا له بالعبور، ابتسم، الميدان مليءٌ بالملايين، يشبه دولةً كبيرةً، رائحة القنابل شديدة، بالأعلى سماعات تشتعل بها أغاني حليم الثورية إلى جانب الخطب الرنانة وهتافات تطالب بإسقاط النظام، مأكولات بسيطة تُوَزَّع، ومياه معدنية بمبالغ مادّية بسيطة، يوزّعون عليهم بعض التّمور، فداعب أحدهم "وسيم" و"حسن ":

- اتفضل كنتاكي.

فسأله "حسن " وبيده قطعة تمر مندهشًا من أمر الرجل:

- كنتاكي!

لكن سرعة بديهة "وسيم" جعلته يدرك ما يقوله الرجل ساخرًا مما يدعوه أن وجبات كنتاكي توزع بالمظاهرات، وأن حياتَهم مرفّهة، هذا ما كانت تبثه قنوات التليفزيون المصري التي تمجّد النظام.

أوراق النتيجة بتواريخها الميلادية تشهد يومًا جديدًا في شهر الثورة، كان الأول من فبراير، يقولون أنه شهرُ خيرٍ، نعم، شهرٌ يسجّله التاريخ على أوراقه.

اندس "حسن" و"وسيم" بالمظاهرات، يفعلون ما طلبه الشيخ "زهدي" يحثون المواطنين على الصبر والجلد يهتفون:

- الله أكبر، الله أكبر.

ويهتف الثّوار معهم، كان "وسيم" يتفحص مكان الميدان بحثًا عن "رجاء"، المكان أشبه بدولة، دولة جديدة بشعب جديد تتخلّلها الخيم، تغفل فيها العيون لساعات، لا ساعات بل دقائق معدودة، وتتوسط الشوارع مستشفى التحرير الميدانية، على أبوابها يقف آلاف الجرحى، إصاباتهم خطيرة.

يحاول "وسيم" بعينيه أن يتفحصَهم، يبحث عن "رجاء"، يتنقل بين جريح وآخر، يصف لهم ملامحها، لم ينسها، وإن كان لم يتذكرْها، فلن ينسى شجاعتها وبسالتها، إيمانه يزداد لرؤيتها، نبضاته تزداد، كأنه يتصارع في أدغالٍ عميقةٍ.

أيّ شوق هذا يمنعه من رؤيتها، قلبه يزداد توجّعًا عليها، دماؤه تفور من ضحايا الثورة، لكن الآن يرى أمامه آلاف الجرحى، يزدادون، عيونهم وأجسادهم تطوقها أقمشة بيضاء تكتم نزيفهم، لا يعرفون الاستسلام.

يعودون للميدان من جديد، لمعركتهم التي لم ولن تنتهي، أسرع "وسيم" يساعدهم، وهو يحمل معهم آلاف الجرحى من عربة الإسعاف،

يقدمون لهم إسعافات أولية في دار المناسبات بعد أن تحوّل إلى مشفى صغير بسيط.

كان "وسيم" يحاول الصمود وتحمّل آلامهم ورؤيتهم داعيًا لهم بالشفاء، ومع حركاته السريعة اصطدم بجسدٍ مشوّهٍ مكتظٍّ بدماء عدوّ، يحاوطه كفنٌ أبيض، أبدى دهشةً واستغرابًا مردّدًا:

- لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

ثم طرحه أرضًا لتسكن روحه بجانب المجروحين، تطايرت قطعة القماش بشكل مفاجئ وعفويّ سريعٍ حتى اصطدم "وسيم" بالجسد، كانت "رجاء"، نعم إنها "رجاء" شهيدة الظلم، تتلقى إسعافاتها، سريعًا ترك "وسيم" ما بيده، تصوّر أن جرحها بسيط، لم يخطر بباله أن يشوّه الظلم جسدَها، وتنبت جذوره في قلبها، حملها من أرضية الشوارع، وراح يصرخ بهم:

- أنقذوها، أنقذوا شهيدة الظلم، أستحلفكم بالله أن تنقذوها، أنا أريدها، اجعلوها على قيد الحياة، أستحلفكم بالله.

اندهش الأطباء من آثار الجرح على جسدها المكتظ باللحم الأبيض، أسرعوا في علاجها، انتهى الدم من جسدها، كانت "رجاء" في حاجة إلى دم فصيلة "o"، لم يبخل "وسيم" عليها، لكن الصدمة أن فصيلته مختلفة عنها، وصرخ للطبيب:

- ماذا أفعل؟

جرى وسط المتظاهرين، وجهه خافتٌ غاضبٌ كمجنونٍ فارٍّ من مشفى يحاولون إمساكه دون ذنب، وبيده لوحة مكتوب عليها "أنقذوا شهيدة الظُّلم، تبرّعوا بالدم فصيلة "o"، أرجوكم تبرعوا بالدم".

منهم من اشتد غضبه على ما يحدث مردِّدًا "حسبي الله ونعم الوكيل"، ومنهم من "حاول التبرع"، وصل"وسيم" إلى مشفى التحرير الميدانية، المكان الذي يوجد به جسد"رجاء"، فأسرع الطبيب بنقل أكياس الدم.

كانت "رجاء" في حاجة كبيرة إليها، نتيجة الظلم والقهر الذي طالها من "منصور"، أمّا "وسيم" انبطح أرضًا على شارع الميدان يصلّي لله ويدعوه بأن تبقى على قيد الحياة، القلق يداهمه.

هو دائمًا قادرٌ على إخفاء دموعه، لكن لايستطيع التنفس بشكل جيد، لا يعرف ماذا جرى له مع "رجاء"، لم يحدث له هذا سابقًا حتى مع وفاة والدته، ارتكن على حائطٍ قريبٍ من "رجاء" يراها تتعالج، تتقلب يمينًا ويسارًا كأمواج مياه ثائرةٍ.

عدَّت ثلاث ساعات و"رجاء" كما هي على حالتها تتألم، و يداه على قلبه، أصوات المتظاهرين تملأ المكان برحيل مبارك، نظر "وسيم" إلى الطبيب حتى لوّح إليه بيده أن كل شئ على مايرام، إشارةً له بأنّ "رجاء" ما زالت على قيد الحياة، ابتسم فرحًا ولوح له بعلامة النصر، ثم حملها بعد أن طالبه الطبيب بأوامر طبية معتادة، ووضعها داخل خيمة صغيرة، لتلمض دمائها، وتعود للحياة ولطبيعتها من جديد، بعد أن ترك

الضرب أثرًا كبيرًا عليها، صوتها مبحوحٌ، كلماتها متقطعةٌ تخرج مكتومة، وجهها مليءٌ بخدشاتٍ، قال لها:

- حمدًا لله على سلامتك.

اكتفت "رجاء" بالنّظر إليه وهى تبتسم ابتسامةً تكشف مرضها، وعينها المغلقة محاولة التطلع إلى الخيمة وإلى وجهه، لكنها فشلت، لم يسمع "وسيم" إجابة، ظن أن أحبالها الصوتية انقطعت، فجرى مسرعًا للمشفى، حيث إن المسافة بينهم قريبة، وطمأنه الطبيب بأنها ساعات وتعود لحالتها الطبيعية مردّدًا بابتسامة دامعة، وصوت خانق:

- الأبطال يعودون للأفضل.

ابتسم "وسيم"، ويده تنسدل ببطءٍ من أعلى رأسه لذقنه، يداري دمعةً تسقط مما هما فيه، وصل إليها، كانت قد استيقظت عن البداية، تتأمله بعين سوداء لامعة، ثم انهارت في البكاء لفترة طويلة بعدما شعرت بوجوده جانبها، وبعد أن مرّ شريط الظلم من "منصور" وما فعله بها، اقترب إليها ووضع رأسها على كتفه، ثم همس بصوته الهادئ في أذنيها وراح يقول:

- أعتذر لكِ و لمصر.

ورفعها على كتفه، ومسح دمعتها وهو يتنهد من بكائها:

- لا تحاولي أن تداري دمعتك، بلدك في حاجة إلى الاستماع إليها، في حاجةٍ إلى رؤيتها، ترى نفسها داخل أعين كل مصريّ ومصريّة، مجروحٍ أو شهيدٍ أو شخصٍ يحاول الصراخ في المظاهرات،

تركها "وسيم" وخرج كي تستريح، توقفت قدمه خارج خيمتها، مصوبًا نظراته على المتظاهرين بأصواتهم الرنانة، أعلام مصر مرفوعة على يادهم، تألّم لبكاء "رجاء"، وقد رحلت الطيور تاركة سماءها للظالمين، فهل تعود ثانية لترفرف على أعلام البلد؟ تطعم صغارها من أفواهها.. لا أحد يعرف، ما زال الصمود يتوّج المكان، إنهم جِمال لا أفيال تهرب من طلقات رصاص صياد متمرس.

فوجئ "وسيم" بخيلٍ وجِمالٍ تتخلّل ساحة المتظاهرات، اندهش مستغربًا، كان يقف وسط هذه الساحة بلطجيةٌ يطيحون ضربًا بأيديهم وأقدامهم، وبأسواطهم ينزلون ضربًا على أكتاف الشعب، وانقسم التحرير إلى صفٍّ مؤيد لمبارك مدفوع الأجر له، وصفٍّ آخر من متظاهرين يتصدون لضرباتهم، كانت حالة من الهياج تسيطر عليهم و"وسيم" يحاول السيطرة على توازنه أمامهم، أن يتصدى لهم ويمسك بأحدهم، انتهت القنابل التي كان يحملها للنزول في الميادين، كان يلهث يمينًا ثم يسارًا، حتى سقط واحدٌ منهم أرضًا وسط الميدان، ووسط ساحة القتال، راح "وسيم" معهم يكتفونه من ساقيه حتى قدميه، وانهالوا عليه ضربًا، وحوله بعض المتظاهرين، يسألونه بغضب وثوريّة:

- من أتى بك إلى هنا؟

ارتعش رافضًا الحديث:

- لا أعرف، وشرفك لن أسمع كلامهم مرة أخرى، اتركوني أرحل، لديّ أطفال.

فاقترب أحدهم إليه:

- اعترف.. من هؤلاء الذين لن تسمعَ كلامهم مرة أخرى؟

وراح يلكمه على وجهه مردداً:

- اعترف يا وغد.

كان مترددًا في الحديث، متلعثمًا، وجهه يشوبه الخوف، وراح يقبّل أيديهم واحدًا تلو الآخر:

- هم الذين قالوا لي افعل ذلك، وإذا اعترفتُ عليهم سيقضون على حياة أبنائي.

لَمْ يصدّقوه فقاموا بضربه من كل اتجاه وراح يصرخ:

- سأعترف، سأعترف.

أخرج أحدهم سيجارة وأعطاها إليه:

- ستتعبنا معك، خذ هذه وأشْعِلْهَا.

اندهش من تغير معاملتهم مردّدًا:

- سأعترف لكم بكل شيء، اليهوات فتحوا لنا سجن الفيّوم، الأمناء وضباط الشرطة قالوا لنا سنفرج عنكم وطمأنونا بأن لا أحد سيعرف طريقَنا أو يلقي القبض علينا في سبيل ما فعلناه، ومنّا من أُتِيَ بهم من نزلة السمان لتحقيق أغراضهم.

لم يبدِ كلّ من حوله إلا اندهاشًا عجيبًا، ودبّت الشجاعة والصلابة في قلوبهم ضدّ رجال الأمن، فقال أحدهم:

- أعطوك كام؟

ردّ وبيده سيجارته، ينفث همومه داخلها وعينه نصف مغلقة قائلًا:

- عشر برائز، وحصان وجمل وقنابل مسيلة للدموع.

- أكمل.

- فهّمونا أن نزل ساحة الميدان ونضربكم حتى نصيبَكم بجروحٍ أو أنّنا ننهي حياتكم، ونحن نهتف باسم الرئيس.

وما إن سمعوا هذا الكلام حتى انهالوا عليه ضربًا، فاقتربت كاميرات التليفزيون لتكشف فضائح السلطة، وما إن اقتربت واحدة وراءها الأخرى حتى وضع يده على وجهه، لا يريد التقاط صور له، أو التصوير، ويفتضح أمره، أو يغتال على أيدي من قاموا بذلك.

رحل"وسيم" شاردًا بعد أن تم احتجازه في الميدان لساعات كثيرة،يتابع ما حدث بترقبٍ شديدٍ، مأساةٌ بطلها كلُّ مواطنٍ مصريّ، فاقترب الليل ناثرًا نجومه بالسماء، وراح يردد حزينًا:

- في هذه البلد، الظالم هو الملك، والمظلوم صعلوك.

من وقت للآخر كان يطل بعينه على "رجاء" داخل خيمتها، شاهد عينها الطفولية اللامعة، طفولية تتفتح كزهرة تمتصّ رحيقها، وجهها أشرق كشمس تترنح في الظهور، راحت خطوط تجاعيدها، وقد عادت الحمرة إلى خدها، فأسرع إليها ثم تمالك ذاته، لم يُلْقِ عليها كلمةً واحدةً، لكنّه انطرح على الأرض متأملها جيدًا، كرسّام حائر بين ريشاته وألوانه، يعرف أنها لا تستطيع الحديث معه ولكنها أسرعت ترتدي النقاب بعد أن شعرت بوجوده، ثم فاجأته وقد عادت الحياة إلى روحها عابثة معه:

- ماذا تفعل هنا؟!

أخفى وسيم فرحته و ابتساماته بعودتها، ونبراته متريّثة بتعقل:

- أنا هنا لعلاجك، والسهر على راحتك، "مداعبًا" يا مولاتي.

ابتسمت "رجاء" ابتسامة تكشف أنوثتها ودلالها، ورفعت حاجبها، ثم سألته في خبث بعد أن عرفت بأمر العمليات الاستشهادية:

- ولماذا إذن كانوا يطاردونك؟

فقال ضاحكًا:

- لأنني أحب مصر.

كتمتْ فضولَها مردّدَة باستنكار:

- وأمن الدولة يطارد هؤلاء الذين يحبون مصر؟

كان سؤال "رجاء" مستفزًّا ومغضِبًا لـ"وسيم":

- أنتِ آخر من تتحدثين عن حمايتهم لنا.

وقف ناهضًا ليخرج من الخيمة، فتألمت "رجاء" من شدة الضرب على جسدها ثم عاد إليها سريعًا وهو يعدل من جِلستها ويقدّم إليها العلاج قائلًا:

- تتسائلين قبل أن تسألي هل منصورك حماكِ؟

تذكرت موقفها المؤلم، ثم استدارت بوجهها جانبًا، فراح وسيم يثبت لها ظلمهم، فتح إليها الخيمة، وشاور بأصبعه على ملايين الجرحى، وردد بعد أن بانت عروق وجهه:

obeikandl.com

- انظري.. آلاف الجرحى، دماؤهم هذه من أمن الدولة ورجال الأمن، بجانبك بلطجيّ، دفعوا له أموالًا لضربنا نحن المتظاهرين، أنا هنا أحميكِ، ليس أمن الدولة.

لم تكفّ "رجاء" عن استفزاز "وسيم" فسألته ببرود:

- أنتَ من؟

تفَهّم "وسيم" بذكائه سؤالها هذا، فردّ أيضًا كاتمًا غيظه، مصطنعًا البرود، مقتربًا منها:

- أنا شخصٌ يحبّ هذه البلد.

فضحكا سويًّا وراح يقول لها، متشوقًا لصوتها:

- جميلةٌ وأنتِ مريضة.

احمرّت "رجاء" خجلًا، وأكمل "وسيم" حديثه:

- تكونين هادئةً، وبسيطةً، وعيناكِ رقيقتان.

ثم فاجأها بسؤاله:

- تحبين مصر؟

لم تتوقع سؤاله، تلعثمت، خطر على بالها "منصور" و"عباس" والدها، سؤال صدمها، رجرج جسدها، وكأنها ارتعشت، وامتنعت عن الرد، فراح يردد:

- بتحبيها، والسبب إنك بطلتي.

- بطلة!

- نعم، خوفك عليا، اندهشت من موافقتك على طلبي.

ابتسمت "رجاء":

- أنا حتى الآن لا أعرف كيف فعلتُ هذا.

- لأنك تحبين مصر، كان الحب بداخلك ترفضين إظهاره، منصور أيضًا يحب مصر لكن من وجهة نظره، كلهم يحبونها بطريقتهم، حتى هؤلاء الذين انتحروا كانوا أيضًا يحبونها.

ثم أخذ قلمًا صغيرًا يرسم على رمل الخيمة طفلة صغيرة، فسألته "رجاء" مندهشةً من أمره، ومن شخصيته:

- ماذا تفعل؟

- تعرفينها؟

اكتفت "رجاء" بهزّ رأسها، فجاوبها متمنيًا إياها:

- هذه أنت يا رجاء، هكذا أراك، طفلة صغيرة تفك ضفائرها، وتشرب من نيل بلون أزرق صافٍ، وتشم هواءً نقيًّا، وتأكل خضارًا صحيًّا، تصنع كل منتجاتها بيديها، حتى صادراتها كل يوم تزداد.

- مصر غدًا أحلى، أنا وأنتَ وهؤلاء المتظاهرين متواجدون لتصبح أفضل.

حديثها أسعد "وسيم" لم يخطر بباله أن يكمل نصفه الآخر، انطلق سعيدًا، واعتدل في جلسته وهو ينظر لها قائلًا:

- أنا لم أخطر ببالك في الأحلام؟

- أنا لا أحلم.

وراحت تضحك برقّة، ثم نهض "وسيم" متجهًا خارج الخيمة، ويده تتوسط شعره الناعم مردّدًا بابتسامة بعد أن اعطاها ظهره، وقد اعتدلت لتنام على وسادتها:

- احلمي بي اليوم.

حضنت رأسها الوسادة سعيدة، وعاد "وسيم "لمكانه بالخارج يراقب ما يحدث ويشارك المتظاهرين هتافاتهم:

- الشعب يريد إسقاط النظام.

ثم السهر على حراسة "رجاء"، بل حراسة " مصر "بأكملها.

****

كومسيون طبي شهده "منصور" بعد أن فتح عينيه، هذا يباشر جسده وآخر يتفحص وجهه وحركات ذراعه، لهذا القدر كان "منصور" يهم رجال الأمن وأصدقاءَه في الأمن المركزيّ، قام معهم ببطولات في قتل الأبرياء، وإصابة المظلومين بعاهاتٍ، لكنه ما زال مشلولًا، حالته تزداد سوءًا، انتهى الأطباء من مباشرة حالته، ثم دخلت والدته ووالده "عباس"، اندهشا من حالته، وراحت والدته تضع يدها على وجهها مفزوعة، أمّا والده اقترب من فراشه، ورفع نافذة غرفته بالأعلى لكي يستطيع التنفس بشكلٍ جيّدٍ، فبكت والدته وسألته بحزن:

- من الذي قام بهذا يا بنيّ؟

تنهّد والده وطلب منها أن تتركه كي يستريح، ليس وقته الآن، لم يبال "منصور"بوجودهم، فنهض ببطءٍ من فراشه، وطلب من والده بإشارة من يده "ورقةً وقلمًا" وأسرع والده:

- اتفضل يا بني، اتفضل.

كتب "منصور" حروف أخته "رجاء" وتوقف عن الكتابة، لم يفهما ما يدور بداخله، وماذا يقصد، فراح "عباس" ينادي الطبيب ليشرح له ماذا يقصد، فطمأنه الطبيب قائلًا:

- من هي "رجاء"؟

فرد والده ضاربًا كفًّا بكفٍّ:

- شقيقته.

- اطمئنوا، "منصور" يسأل عن أحوالها.

خرج الطبيب، واستلقت والدته بجانبه على الفراش مردِّدةً:

- "رجاء" في العمل منذ يومين، قالت أنها لا تعرف العودة إلى البيت بسبب ما تسمى المظاهرات.

استراح "منصور" بظهره للخلف، "رجاء" كانت في نظر "منصور" خائنة تستحق القتل، هو لا يريد أن يراها ثانية، متمنيًا اللحظة التي يشفي غليله منها، وكأنها ارتكبت إثمًا في نظره، كان يراها عارًا على بلده، وعلى سمعته وعائلته، عينه مكسورة أمام زملائه، هو في نظرهم عميلٌ أو جاسوسٌ يستوجب مراقبته.

خرج "منصور" من شروده متألّمًا، يصرخ، يحاول أن ينطق، أصواته متقطعة لا تُفهم، فيرى من حوله مشوّشين، صورتهم تهتز، وجوههم كثيرة، عاود الصراخ فاحتضنته والدته، لا تستطيع أن تهدئه، أو تضغط على عصبيته، عاد الطبيب وشاهده في حالة هياج، فأعطاه حقنة مهدّئة، وطلب من أهله الرحيل.

خرجوا جميعًا، استندت والدته على الباب، تبكي بشدّة، كاد أن يغمى عليها فلحقها "عباس"..

- استريحي على هذا المقعد.

ثم ذهب إلى الطبيب مسرعًا، يعرف ماذا حدث لـ"منصور"، ولماذا لا يتحدث ويصرخ كالأطفال:

- هذه بوادر الشلل، اطمئن، "منصور" متوصي عليه وأنا أباشره بنفسي.

اصطدم "عباس" من كلام الطبيب، كيف يحدث له هذا، ومن فعل ذلك؟

قطع الممر الطولي للمشفى المتجه إلى صالة الاستراحة، وجلس بجوار زوجته، ثم سند رأسه للخلف يفكر في أمر "منصور"، فجأة رنّ هاتفه، فتبدّلت ملامحه غضبًا، وأسرع إلى المنزل كيْ يتأكد ممّا قيل له.

دسّ "عباس " المفتاح بالباب، أعصابه متوترة، شديد الغضب، لا يصدق ما قيل له، اتجه إلى غرفة "رجاء"، ثم قام بتفتيشها، ألقى بالوسادات خارجًا، يخبط على مكتبها، أفرغ محتوياته، لم يجد شيئًا، حاول الاتصال بها، هاتفها مغلق، وقال مردّدًا بصوت عالٍ:

- إشاعات، ابنتي لاتفعل ذلك.

وعاد يبحث مرة أخرى، وجد خطابًا تحت وسادتها، فتحه مسرعًا، ومِنْ شدة سرعته تقطعت أجزاء منه، لم يقرأ سوى كلمات"أنتِ منضمّة للجماعة، ووجد اسم " وسيم" بالورقة، تمنى لو احترق في لهيبٍ كبيرٍ ولا يرى هذا، "رجاء" ابنته تقف أمامه ندًا بند! ضد النظام، مع "وسيم" أهم عضو في الجماعة! اندهش قائلًا:

- "وسيم" يا رجاء! "وسيم"! ماهذه المصائب التي حلّت بي؟

لمْ يستطع "عباس" أن يتخذ قرارًا، وما هو القرار الصحيح، وأين "رجاء"؟ ومن سيحل مشكلته هذه؟

ثم رنّ هاتفه ثانية، صوته متخاذل، مكسور:

- تأكدت يا فندم.

* * *

جوٌّ قارص باردٌ لا يحتمل الجلوس فيه طويلًا، تشتَّتَتْ المظاهرات ونشبت حرب أهليةٌ بينهم وبين بلطجية السجون في ميدان التحرير، قنابل المولوتوف تُقْذَف في كل اتجاه، وقنّاصات تصوب في أجسادهم، تخترقها فينطرحون أرضًا، كأنها حرب استنزافية، تتوسط الميدان سيارات مصفحة كانت مشتعلة، وتعتم الرؤية ذرات الدخان الصادرة منها، يجلس "وسيم" بالقرب منها على أرصفة الشوارع، جسده يرتعش، عيناه تترقبان المكان بشدّة، فأرسلت إليه جماعته أغطية قطنية ناعمة تحميهم من برد الليل، وانتهت كلّها على أجساد المتظاهرين، فلم يتبقَّ إلا واحدةً أعطاها ل- "رجاء"، طوّق جسدها كله، رأى عينيها مغلقتين وقد راحت في سبات عميق.

لم يهلك المتظاهرون، سيطروا على التحرير بأكمله، لم يتركوا المظاهرات لأعمال الشغب، لكنهم أمسكوا بزمام الأمور، منقضّين على مؤيدي مبارك، وانطفأت أنوار مصر ما عدا عيون الميدان لم تنطفئ مشتعلةً حتى إشراقة الصباح.

نثرت الشمسُ أشعتها على أجساد المتظاهرين فاستعدوا ليومٍ جديدٍ، كان يوم جمعة الغضب 4 فبراير، مطالبهم كما هي "رحيل مبارك" وسقوط النظام الحاكم، كلمات الحكومة لا تجدي بشيءٍ، يريدون من المتظاهرين أن يلتزموا بيوتهم لكن دون جدوى، صمودهم بلا نهاية، فوجئ "وسيم" بـ"رجاء "أمام الخيمة تترقب أحوال الميدان، نهضَ سريعًا من مكانه في اتجاهه إليها وسألها ناهرًا إياها:

- استريحي، ليس ميعاد خروجك من الخيمة.

أطلّتْ "رجاء" بعينيها في انبهار:

- الميدان رائع. يذكرني بقبائل الصحراء وأيام الجاهلية، أليس كذلك؟

ثم انطرحت أرضًا داخل الخيمة عائدةً كما كانت وراح "وسيم" خلفها يطمئن عليها:

- أيام الجاهلية شيءٌ والآن شيءٌ آخر، لا يوجد وجه مقارنة، ثورتنا هي أول ثورة للمصريين في التاريخ.

وردَّدَ بافتخار:

- ثورتنا من غير قائدٍ ومطالبنا مختلفة لكن لا أحد يعرف أين نهايتها؟

- ربما البداية هي النهاية؟

- لا، لابد أن تكون هناك نهاية و منها ستكون البداية.

حاولت "رجاء" أن تساير "وسيم"، هي لا تفهم ما يدور بعقله، لكنها لا تريد أن يخذلها أو يتهكّم عليها لفارق العقل بينها وبينه، حالتها كانت مستقرةً وجيدةً في هذا اليوم، تنهض وتصرخ وتجادل وتحضر الطعام وتساعد المحتاجين، وتستطيع أن تشارك المتظاهرين هتافاتهم، يكفيها وجود "وسيم" بجانبها.

انتهتْ "رجاء" من إطعام "وسيم" وخرجا سويًّا إلى الميدان، يحاوطها هو بذراعه من آلام المتظاهرين وآلام رجال الأمن المركزي كأنها طفلة تتشبث بالزهور لتحميها، ويرتطمون بهم فيصدرون آهات عالية، ثم يعودون للتصدي لهم من جديد، اللافتات مرفوعة لأعلى ترفرف معها

أعلام مصر بألوانها الزاهية وكأنها مضيئة متلألئة، وتوافد ملايين الأشخاص إلى الميدان.

انتهتْ صلاة الجمعة وبدأت الهتافات الصاخبة، رنانة في كلماتها "الشعب يريد إسقاط النظام" والكاميرات تعلوهم من كل جانب، قنوات تليفزيونية عالمية ومعها قناة الجزيرة، فاصطدم "شريف كوتة" بجسد "رجاء" مصادفة دون قصد فاشتد غيظ "وسيم" وهو يحوط عليها مع شباب الثورة.

نظر إليه "شريف " وهو يحاول التأكد منه، ظنّ أنه "وسيم المغربي " نعم حقًّا هي نفس المواصفات التي وصفها له الضابط "علاء الجندي"، فهمست "رجاء" بأذنه مردِّدة بهدوء:

- حصل خير.

ورحل "كوتة" بعيدًا عنهم وكأنّ صيادًا وقعت فريسته من غير احتياطات، فأخرج هاتفه مسرعًا يطلب بحرص الضابط "علاء الجندي"، ويده الأخرى تلتقط لهم بعض الصور، صورة يحملون أعلامًا ولافتاتٍ، وأخرى يوزعون الطعام، ويتلقون أعنف الضربات من الأمن متصدّين لهم بقوة، يهتفون بقوة وأحيانًا أخرى يحملون المصابين إلى مشفى التحرير الميداني.

يسمع "شريف كوتة" مناوشات واضطربات تحدث بين "علاء الجندي" وزملائه من أمن الدولة وهو يراقب "وسيم "و"رجاء"، كان "علاء" في انتظار لحظة القبض على " وسيم" أما "عادلي" و"محمد باشا" يضعون نصب أعينهم ميدانَ التحرير، أسرع "عادلي" بأمر من رؤسائه

أن يمكث بسطح منزله، فأرسلوا إليه أربعةً من بلطجية السجون يقطنون حيّ بولاق لقذف المتظاهرين بقنابل المولوتوف، هو معهم ويشرف عليهم فيحدد خطواتهم.

كانت تسود جدران المنزل حالة هدوء تام تتوسطها حركات أقدام "علاء الجندي" يعتصر أصابع يده، يروح ذهابًا وإيابًا، يداهمه القلق وبصوتٍ أجش:

- سأكون أمامك الآن.

استعد"عادلي" لحرب كبيرة بينه وبين "وسيم المغربي" وطلب ترتيب حجرته بأمن الدولة، وأن ينتظره "عباس" داخلها، فاندهش من طلبه، عليه أن يلتزم الصمت والترقب فقط مع تنفيذ الأوامر.

اقترب "علاء" من ميدان التحرير ومعه اثنان من رجال الأمن المركزي حتى وصل بالقرب من "شريف كوتة" وسط مليوني متظاهر وبهدوء:

- أين هم؟

كانت "رجاء "عائدةً إلى خيمتها مع "وسيم" كيْ تستريح من ما هي فيه من مرض، رآها "علاء الجندي " وأمر جنوده بالإسراع في القبض عليها، أما هو اتجه إلى" وسيم "و راح يشدّه من خصلات شعره حتى كادت أن تُقْتَلَع من جذورها، صرخت "رجاء "من فعلتهم، هي لا تعرف ما يحدث معها، أعصبوا أعينهم، فوقعت عينا "وسيم" على الضابط "علاء"، تذكر ملامحَه جيدًا، وتفهّم الأمر، ثم بطحوهم أرضًا على ركبهم وحملوهم داخل سيارة مصفحة، ألقوا بهم في الخلف.

وصلت الأخبار ل- "زهدي" فاجتمع بالجماعة لتنفيذ المهمة أمام الكمين المقارب لأمن الدولة، بعد أن طلب من "حسن الإسلامبولي" ذلك. الجماعة تمتلك أسلحةً حديثة، وأجهزة تكنولوجيا تحاول الوصول لأيّ شخص، إلا أن هذه العملية ستكون بديلةً إذا لم يتم الإفراج عن "رجاء" و"وسيم" بعد أن قرّر "زهدي" محاولة تهديد الضابط "علاء" في البداية وقبل كل شيءٍ.

وبالقرب من مقر أمن الدولة بمدينة نصر كانت كلمات "علاء" قاسيةً وقويةً، فضحك لأول مرة بحياته، شعر أن انتصارًا كبيرًا حققه في هذا اليوم، وصلوا للمكان المحدَّد، ثم لكموهم بضربات قويةٍ عنيفةٍ، نزَفَ "وسيم" من شفتيه دماءً غزيرةً، لم يدهشْه ما يفعلونه به، فقد اعتاد ذلك وما لبثت "رجاء" أن وجدت شفتها تؤلمها، صرخت صرخاتٍ مدوية، رجرجت المكان، كتموا أنفاسها وقذفوها بأقبح الشتائم، على كراسيّ خشبية داخل حجرة لا يمكن لأحد أن يسمع رنة مسمار يُلْقَى على الأرض، وضعوهم على الكراسيّ، ثم تركوهم لفترة قصيرة، وردد "وسيم" بحزن وأسى:

- عرفتِ الآن ماذا يعني أمن دولة؟

بكت "رجاء" واختلطت دموعها بدماءٍ نازفةٍ على خدّها دون أن تنطق بكلمة، حتى سمع وسيم نحيبها، واهتزّ جسده طالبًا منها أن تهدأ، مطَمْئِنًا إياها، وبعد دقائق وقع على أذن "وسيم" صوتٌ مميزٌ، دقّق السمعَ طالبًا من "رجاء" الصمت، وضربات عنيفة وصراخ تأكد أنه صوت وائل، نعم إنه "وائل" فصرخ ونهض من على كرسيه: " وائل"!!

تحاول "رجاء" أن تتحسس المكان وعيناها معصوبتان، متسائلةً بحزنٍ:

- من وائل، أنت تعرفه؟

خفض صوته مردّدًا بفرحٍ وأحيانًا بنبرةٍ يشوبها حزن عميق:

- "وائل" مسئول الجماعات الإسلامية وقائد كبير لها، قُبِضَ عليه يوم الخميس 27 فبراير بنفس هذه الطريقة التي قُبِضَ علينا بها.

- إحساسي بالخوف منهم جعلني أكرههم، حيوانات بذيولٍ لا تعرف الرحمة.

وفوجئ "وسيم"بصوت أقدام تقترب منهم فصمتا، وامتلأت الحجرة بضحكات رنانة، إنه الضابط "علاء" يتحدث ببرود تامّ وهو يربت على كتف "وسيم" قائلًا:

- تصدق، منذ مدة كبير ة وأنا أبحث عنك، منذ سنين طويلة وأنا في انتظار هذا اليوم.

ثم وضع منديلًا صغيرًا معطرًا بروائح الياسمين أعلى فمه ليمسح له دماءه.

وراح يسأله وهو يهمس بأذنه مع برودة أعصابه:

- أخبِرْني، ما هو موعد العملية؟

ردَّ "وسيم" بنفس النبرة:

- لا توجد عملية.

فراح "علاء" يلتف حول "رجاء" ويتحسَّس مفاتن جسدها قائلًا بابتسامةٍ شهوانيةٍ:

- أتذْكر الآن أن السجون مليئةً بمساجين لم يناموا مع زوجاتهم منذ مدة طويلة؟

وراحت "رجاء" تصرخ وتدافع عن نفسها، فجُذِعَت رأسها من شِدّة دفعه عنها.

تنهَّد "وسيم" تنهدات عالية، دقات قلبه تتزايد، تتصارع، يتصبّب عرقًا، لا وجود لذرات هواءٍ داخل الغرفة، حوائطها مطلية بطلاءٍ قديمٍ، منزوعة هي طبقاتها البيضاء، اعتصر "وسيم" قلبه، لكنه ما زال رافضًا الحديث صارخًا:

- لا توجد عملية.

غضب "علاء" بشِدّة من ردّ فعل "وسيم " وكأنَّ شيئًا لم يؤثر فيه، وأمر رجاله بصوت عالٍ أن يدخل المساجين.

قام "عباس" بذلك، هو لا يعرف إلا "وسيم"، أمّا "رجاء" فمن شدة الضرب لم يتبين ملامحها جيدًا، وجهها مليءٌ بخدوشٍ، متورمة هي عينها.

كان الضابط "علاء" شديد الغضب، وضع قدمه اليمنى على أحد الكراسي وهو يحكّ يده بشدّة متسائلًا وكلامه موجه لأحد المساجين بعد أن أخرج **50** جنيهًا وألقاها على الأرض:

- بقالك أد إيه لم تنم؟ منذ متى وأنتَ لم تعاشر زوجتك يا حربي؟

هبط أرضًا ليمسِك بالفلوس متلهفًا عليها قائلًا:

- لماذا تسأل؟

فضحك عاليًا وهو يربّت على كتفه. ما رأيك بهذه الجميلة؟ ويده على خدّ "رجاء" يداعبها.

- تُعْجِبك ياحربي؟

أثار غضب "وسيم" فصرخ محاولًا فكّ قيود يده:

- إذا اقترب منها سوف أقتله.

فضحك "علاء" قائلًا:

- هيا يا حربي، ابدأ مهمتك.

كان جسده قويًّا متينًا وعيناه تحدقان ب- "رجاء" في كل مكان، لا تستطيع إلا أن تصرخ، أما "وسيم" يفرك يده بقوة، فاختلع "حربي" قميصه، رائحته عفنه كريهة، واقترب من "رجاء" في خطوات ثابتة مبتسمًا ابتسامة شرسة، فوضعها على أرضية الغرفة يحاول تقبيلها، بعد أن جرّدها من ملابسها واحدة وراء الأخرى، فتصدّه صدّات قويّة، تركله بقدمها، تلعنه وتسبه، و "وسيم" يزحف إليها أرضًا فيركله "علاء" بإحدى ساقيه، حتى تقطعت ملابسها فأصبحت شبهَ عارية، لم يرحمْها، ازدادت شهواته كحيوان بوهيمي لا يفرق بين جماد وإنسان، أصابت "وسيم" خدوشٌ قويةٌ ودماؤه منسالة أرضًا لا يعرف كيف ينقذ "رجاء"من أيديهم الظالمة والمهينة، وفوجئ "عباس" بنداء "وسيم" وتبيّن له أنها ابنته "رجاء"، أصابه الذعر:

- هذا "وسيم" الذي طلبت مني مراقبته؟!

فضحك "علاء" عاليًا:

- نعم، و هذه "رجاء" ابنتك، ألا تعرفها حتى الآن.

تراجع" عباس "خائفًا مذعورًا من الضابط "علاء"، لم يستطع تصديق ما قاله، حقًّا هي "رجاء"، وما إن سمعتْ صوت والدها "عباس" حتى تعرفتْ عليه صارخةً مستنجدةً به، فظلّ حائرًا، ماذا يفعل وأيّهما سيطغى، حبه لبلده ومبارك؟ أم أبويته وابنته "رجاء"؟ أيّ المشاعر ستطغى على الأخرى؟

انقطعت أحبال أفكاره، وما لبث أن أسرع عليها متلهفًا، فاعترض "علاء الجندي" طريقه:

- انتظر عندك.

توقف "عباس" مكانه بأمر من رئيسه، كيف يرى ابنته تغتصب؟! إنها الوهلة الأولى التي يقف فيها ضعيفًا مخذولًا، فهمس إليه أحدهم:

- "وائل" اعترف. انتفض "وسيم" من مكانه أرضًا،فاصطدمت قدمه بقدم "حربي"، وأمره "علاء الجندي " قائلًا:

- كفى يا "حربي"، "عباس" يعرف مهمته جيدًا وسيُعَقِّل ابنته، وإلا ...

ثم شاور على جهازٍ كهربائيٍّ يُستخدم في تعذيب المعتقلين، فانحنى "عباس" أرضًا.

ثم خرج "علاء" ليباشر ما حدث مع "وائل" والحزن يعشّش بالمكان، وتسودّ جدرانه خطوط صمت أبدية، ونيرانٌ ملتهبةٌ تسكن قلوبهم، حتى أصابها الضعف والهزال.

لا أحد بالغرفة سوى "عباس" و"رجاء" و"وسيم"، ظنت "رجاء" أنّ والدها "عباس" سيفكّ قيدها محاولًا إنقاذها، وما إن قطع قيودًا تغلف ذراعها حتى انهال عليها ضربًا مبرحًا، وهو يصرخ بوجهها فبانت خطوط وتجاعيد وجهه وشيخوخته التي تظهر سنوات عمله مع أمن الدولة ثم ردَّدَ بأسى وانهزام:

- خاينة..أنتِ مصيرك الموت.

ثم ارتكن على الكرسيّ مغطّيًا "رجاء" بعباءته مردّدًا بوجع:

- لماذا فعلتِ هذا، هذه بلدك، اعترفي، متى عملية الاستشهاد؟

شعر "وسيم" بالخوف على "رجاء" لكنه على يقين بشجاعتها وقوتها، لم يشكّ في ذلك، أما "رجاء" فقد انتهت وتشوّه جسدها، فزاد احتقارها وكرهها لوالدها، وكأنها تبرأت منه، هي تلومه على ما هي فيه، وعلى تربيته لها، وتساءلت في نحيبٍ قويٍّ مَن الخائن؟ هل هي التي تدافع بكل قطرة دم عن بلدها؟ أم هي الخائنة في نظرهم؟ أم والدها هو الخائن؟

لماذا تتداخل الأمور وتعصف بها لتتركها على جسور من الأشواك تترنح فتحاول الوقوف؟ أيّ إجابة ترضيها وتشفي نيران والدها؟ اكتشفتْ "رجاء" في نهاية المطاف أنها تقطن في بيت ظالمٍ.

وعادتْ نفس خطوط الدهشة إلى "وسيم"، لمْ يتوقع معاملة والدها لها هكذا، لكنه توقع أن يرأف بها، ويبثّ بداخلها الشجاعة والحنان، هي لا تفعل إلا واجبها تجاه البلد لكي تنقذها من رموز الفساد.

هذا ما قاله "وسيم" لعباس وما لبث "عباس" إلا أن استنكر كلامه مرددًا:

- اخرس.

انهارت "رجاء" طالبةً من والدها أن يكفّ عن كلامه، هي لا تريد أن تسمع كلماته التي تقتل أبوّته تجاهها.

كانت أقدام "علاء الجندي" تقترب تجاههم، وهو يطلب من رجاله تكثيف جلسات الكهرباء على "وائل".

ثم ركل الباب بقدمه ركلةً قويةً، موجّهًا نظرته إليهم. تُشبه نظرةَ صقرٍ يحلّق عاليًا مردّدًا:

- عَقَلَتْ أم أعيد لها جلسات الكهرباء تعقلها؟

ركع "عباس" أرضًا مقبّلًا قدم "علاء" بانكسار بعد أن عاد:

- هذه ابنتي الوحيدة.

فرفعه من كتفه بهدوءٍ وبنبرة سخرية:

- لا تقل ذلك.

ثم اقترب هامسًا بأذنه:

- أنتَ لا تعرف أن ما تفعله ابنتك خيانة، وأنت تعرف مصير الخائن؟ أنت تعمل معنا وتعرف، ابنتك تقوم بعمل إرهابيّ.

وراح يجلس "علاء" على الكرسيّ، واضعًا ساقًا فوق الأخرى وهو يشعل غليونه في فمه، ينتظر أن يضعوا لهم أجهزة التعذيب.

انتبه "علاء" لما جاء له من رسائل تهديد بأن هناك عملية ستحدث أمام المقرّ، فاستعد بتكثيف الأمن أمام المكان. وقرّر أن يتركهم في مقابل

مراقبتهم تحسبًا وتخوّفًا لما سيحدث من جماعتهم، هذه الأوامر جاءت إليه.

فراح يقفز من مكانهِ يضربهم بالسّوط ضرباتٍ موجعةٍ صارخًا في وجه "وسيم":

- تتخيل أنني أخاف منك ومن تهديدات جماعتك الإرهابية؟!

وراح يستكمل صراخه بأقبح الشتائم، متوعّدًا إياهم.

ثم أمر رجاله بإخلاء سبيلهم، لكنّ "عباس" لم يبدِ أيّ فعلٍ تجاه أمره، هو يعلم نية الضابط "علاء"، فهو لم يترك أحدًا يخرج من تحت رحمته إلا ولقّنه عذابًا، لكن ما داعيه في أن يتركهم وشأنهم؟ ربما أنه سينوي لهم على نيةِ سوء، هذا مادار بين "عباس" ونفسِه، يفكر تكرارًا.

لكن السعادة عادت ترتسم على وجه "رجاء"، أمّا "وسيم" لم يعلق، لكن يعرف خطوات الجماعة جيدًا.

خرجتْ "رجاء" مع "وسيم" وقد ظهر وجهها بعد أن غطى جسدها بجلباب، اتجه "عباس" خلفها يطلب منها أن تعود إلى صوابها، وأن تتركهم، لكنها لمْ تبال، وراحت تقسو عليه من جديد.

نظر "وسيم" إلى "رجاء" فتألم بشدة مما حدث معها، ماذنبها معه، ثم فكّ قيدها هي الأخرى، وراحت تفرك بأصابعها، أصوات الهواء تتداخل مع أصوات الحيوانات الضالّة، كانت ترتعش "رجاء" مع أصوات أسنانها التي تحتك ببعضها، احتضنها "وسيم" بهدوء واختبئا بمكانٍ آمنٍ، كان القليل على بروز الفجر، وفوجئ "وسيم" بـ"حسن الإسلامبولي" يقطن

سيارة مصفحة صغيرة، فهبط إليهم مسرعًا، واحتضن "وسيم" إشارةً على سلامته، ثم حملا "رجاء" بحذر، فاندهشت صارخة.

- "وسيم"!

تفهم "وسيم" ماذا تريد أن تقول مردّدًا بسعادة وأطراف أصابعه تربّت على يديها باطمئنان قائلًا:

- نعم، هو "حسن الإسلامبولي" الذي طلبت منك أن تعطيه الصندوق.

- ابتسمت "رجاء" وقد شعرت بارتياح.

فردَّد "حسن":

- أهلًا بك في جماعتنا.

وأسرعا إلى الشيخ "زهدي".

في الطريق و"رجاء" تحاول التفكير، لماذا تركهم الضابط "علاء"؟ هل لأنه استعاد هيبته بعد أن قام بتعذيبهم لمدة طويلة؟ أم أن والدها سيكون طرَفًا ما لعودتها إلى هذا المكان المخيف؟

"وسيم" كان على وشك أن يتوقع ماذا يخطط الضابط "علاء"، هو يعرف أن لا يوجد شيء يدينهم، لكن يمكن له أن يخطّط لهم ويدبّر فيقعوا في شرّ أعمالهم، كلّ ما عليه أن ينوي العزم على الاستشهاد، هو يعلم جيدًا أن أجهزة الأمن تراقبه.

لم يدرك "وسيم" منذ طفولته معنى هذه الطفولة، وهو الذي تربى على قراءة القرآن، يكفي أنّ والدته كانت تحكي له دائمًا عمّا يحدث داخل

فلسطين حتى بثّت في نفسه حبّ الجهاد، شرحتْ له عن العدوّ الصهيوني "إسرائيل" وعن حق استرداد الفلسطينين أراضيهم، أرض العروبة، قالت له ذات مرة: ما رأيك أن تذهب معي لفلسطين وتحارب وأن تستشهد هناك؟ بثَّت في روحه هذه الفكرة، كانت تشجّعه من حين لآخر، حتى نضج عليه، ولأن "وسيم" يحمل من الشهادات العليا ما يؤهله لمنصب كبيرٍ في يومٍ ما إلا أنه اختار طريق الجهاد حفاظًا على حياة والدته، ثم انضم من بعدها إلى الجهاد الأفغاني.

لم يسمع "وسيم" أنّ ثورة ما ستقوم في مصر وأن حالها سيتبدل، هو يعلم أن المصريين لا يثورون ضد أيّ نظام حاكم، هكذا تربى وترعرع على يد والده في مصر، وبعد أن علم بحدوث ثورةٍ، انتفض من مكانه فرحًا ووجد أن سبيله للاستشهاد في محله، انضم "وسيم" للجماعات الإسلامية في مقتبل عمره، شاركهم المعتقلات بتهمة قلب نظام الحكم، انتهت حياته وتوقف مستقبله، هو الآن في انتظار الشهادة.

* * *

لم تعرف "رجاء" أنّ قائدهم هو الشيخ "زهدي"، عاد "وسيم" لمنزله فاندهشتْ "رجاء" أنّه يقطن بالحارة التي تقطن بها. كان بيت الشيخ "زهدي" بجانبهم، قرروا الذهاب إلى بيته.

بيت "زهدي" واسعٌ ينمّ عن خير وغنى فاحش، تتوسطه براويز تحمل آيات قرآنية، الأرضية مغطاة بسجّادٍ ناعمٍ، لكنّه يميل إلى الجلسات العربية لدرجة أنّ جميع أركان المنزل تشبه تلك الجلسة بخُدَّادِيَّاتِها، خرجت منْ وراء الستائر البرونزية امرأة كبيرة في السن وجهها أبيض مشرق ويطوق جسدها رداء أبيض ملائكي وكأنها عادت للتو واللحظة من حج أو عمرة وزيارة بيت الله الحرام، ورائحة المسك تفوح من بين ذراعيها، وكلماتها التي تخرج ببركة الدعاء وحب الإيمان.

اندهشَتْ ممّا حدث لـ"رجاء" و"وسيم" واكتفتْ بالدعاء لهما ثم أخذت "رجاء" إلى حجرتها لترتدي رداءً آخر وتستريح، أما "وسيم" اندسّ مع الشيخ "زهدي" و"حسن الإسلامبولي" ينتظرون أمر الاستشهاد، رائحة المكان مملوءةٌ بعطرٍ مِسْكِيّ، وبخور سعوديّ أصليّ النّوع، افترش الشيخ "زهدي" عباءته قائلًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم، وراح يسبّح تسابيحه الدينيّة.

فردَّد الجميع بأمانيَ نابعة من قلوبهم البيضاء، قائلين:

- اللهم آمين.

ثم أشاح بوجهه تجاه" وسيم" قائلًا :

- فرّج الله همّك يا أخ "وسيم"، طوال فترة غيابك واعتقالك بأمن الدولة، وأنا أدعو الله وأطلب منه رجوعك بالسلامة أنت والأخت "رجاء"،

في النهاية استطعنا أن نُخرجك من هناك، لا بد أن تعرف أن رجال أمن الدولة لن يتركوك، وخاصة المعركة التي بينك وبين الظالم "علاء الجندي".

لم يندهش "وسيم" من معرفة الشيخ "زهدي" بأمره فقد عاش معه هذا التنبؤ، وتيقّن أن بينه وبين الله علاقةً قويةً أشبه بعلاقة العبْد الربّانيّ، لكن ليست كل الأمور يدركها الشيخ "زهدي"، فالعلم والغيب بأمر الله.

ارتدت "رجاء"أطهر الثياب، شالًا أبيض طويلًا يلفح وجهها الملائكي وجلبابًا أبيض، وقد وضعت النقاب على وجهها بعد أن شعرت بارتياح، وراحت تلقي السلام على الشيخ "زهدي".

- اقتربي يا ابنتي، اقتربي يا "رجاء".

اقتربت "رجاء" مذعورة من الحقيقة، لم تتوقع هذا الذي يحدث لها في يومٍ من الأيام، اصفر وجهها، توقعت أنها بطلة في فيلم عن الجاسوسيّة، ما هذا الذي يحدث لها؟!

ابتسم "وسيم" من دهشتها وازداد حنينه إليها بهذا الرداء الذي يشبه صفاء قلبها، وجلست على الأرض متقوقعةً في ذاتها، هي تنصت بدقة إليهم.

فقال الشيخ "زهدي" موجّهًا كلامه لرجاء وبحرص:

- أنتِ نجحتِ في العملية.

فنظرت بطرف عينها بخبثٍ إلى "وسيم"، وابتسمت.

ثم استكمل الشيخ "زهدي" قائلًا:

- الظلم الفاحش منتشرٌ بكلّ مكان، يطوح بأبناءنا الشهداء في الميدان، والظالم لا يريد أن يترك الكرسي، لذلك لا بد أن نستعجل العملية، عدد القتلى كل يوم يزداد، الليلة الماضية توفيت أختٌ لك في الشهادة على يد الفاسدين، اسمها سالي زهران ضربوها بطلقاتهم.

ثم رفعوا أيديهم للسماء داعين لها بالمغفرة، متمتمين بقراءة الفاتحة، ومسحوا على وجوههم بأيديهم الطاهرة.

ارتعشت بل انتفضت "رجاء" من مكانها، لم تتوقع أن يقوم "وسيم" بالشهادة أو أن يكون ذلك مصيرها في الحياة.

سؤال لم يخطر على بالها هي ابنة الثالثة والعشرين من عمرها، كل ما كانت تحلم به حياة كريمة، بسيطة، وزوج حنون وطفل يلهو ويلعب معها، أو فستانٌ جديدٌ يفرحها، أو صديقاتها اللاتي تناوب معهم، تمرح معهم، ما ذلك الحمل الثقيل الذي ستتجه نحوه "رجاء"؟

هل تستكثر عليها الحياة أن تنعم مع "وسيم" في عشّ هادئ يجمعهما وطفل صغير يحبو على قدميه ويلعب معها؟ أم تحصل على شهادةٍ من جامعة مفتوحة؟ هل كل هذا إلى زوال؟

راحت تقضم أظافرها، توتّر لم تشهدْه من قبل، وحيرة لم تأتِ إليها وتعصف بأفكارها فتشعرها بحزنٍ لا بفرحةٍ، ومن بيْن الحاضرين كان يراقب أفكارها الشيخ "زهدي"، هو يعرفها من عينيها وطريقة تفكيرها، حتى جلستها، وراح يفاجئُها قائلًا...

راح يرسم الخطة التي على إثرها ستكون عملية الاستشهاد، مجتمعًا بوسيم ورجاء داخل غرفة مغلقة خالية من بصيص نورٍ، ارتعشت "رجاء" فأسندها "وسيم"، ثم لاحظ الشيخ "زهدي" قلقها وتوترها مربّتًا على كتفها:

- أنا عارف إنتي بتفكري في إيه يا رجاء، خوفك هو القوة الحقيقية.

- اندهشتْ من الشيخ "زهدي"، وكأنها كانت تتحدث أو تفكر بصوت عالٍ.

وراح يبث بداخلها كلماته المطمئنة، طهّر نفسها من أيّ شيطانٍ رجيمٍ يوسوس لها، ثم عرض عليها صور الشهداء داخل معركة الجمل، ومن هم بالمشفى، فارتكنت بهدوء مغمضةً عينيها عنهم، وفوجئت بقوة إلهية تبعث الطمأنينة بداخلها.

نظر "وسيم" إلى "رجاء"، شعر بغربة نحوها، لم يتوقع أن ترفض العملية وهل حقًّا هي رفضت أم ماذا يدور بخلجاتها نحو هذا الأمر؟ فاشتد غضبه، لم ينس "وسيم" الثأر بينه وبين الضابط "علاء الجندي" الذي أفسد عملية استشهاده من قبل.

اقتربت "رجاء" بجانبه، لم تنطق بشفا كلمة، لكنّه حاول أن يصمد ويتحاشى نظراتها القوية، أما إحساسها فكان كفيلًا بالشعور بجمود "وسيم" نحوها، لم تضغط عليه في تلك اللحظة العصيبة.

نظر إليها باندهاش مردّدًا بصوت أشبه بصوت غاضب ثائر:

- لم أفهمكِ يا "رجاء".

ابتسمت "رجاء" مردّدة في أسى:

- أنا لست غامضةً لهذه الدرجة. أنا كتابٌ مفتوحٌ وسهلُ القراءة.

لامست أطراف يده أطراف يدها دون تعمّد فارتعشت وارتكنت إلى الوراء في خطوات وئيدة، شعر بها "وسيم ".

لم تتوقع هذا الجفاء من "وسيم "وكأنها لهجة جديدة لم تعتد عليها، فنزلت دموعها دون قصد، منتظرة لحظة نزولها حتى تفك كربًا لم تشهده من قبل.

كانت الحياة كئيبةً بالنسبة لها في تلك اللحظة، تنفس "وسيم" الصعداء من شدة بكائها، وترك ما بيده وأخذها برفق وهبطا معًا ثم انطرحا أرضًا ببطء، وهو يردّد بهدوء وصوت منخفض يحاول إقناعها بأمر إستشهاده:

- أنا آسف، الاستشهاد هيخلصنا من رموز الفساد في مصر.

ثم دخل الشيخ "زهدي" في وقت غير متوقع أن توافق على الدخول في الجماعة، وأن تتبنى أفكارها خاصة بعد علمها باستشهاد "وسيم"، حاول "زهدي" أن يغسل عقلها بأهمية هذا الأمر وكيف أن الخلاص من رموز الفساد واجبٌ وطنيٌّ مرددًا:

- بارك الله فيكِ يا بنتي، أنتِ جوهرةٌ أرسلها الله للجماعة، نتبارك بحسّك في معركة الميدان وتطيحين بالأنظمة الفاسدة التي لاتعرف أيّ شيءٍ عن العدل والمساواة والكرامة، كل ما يهمها هو الهروب بأموالها خارج البلاد، حتى لو كان هذا على حساب شعبها.

وأخذها من ذراعها وطلب منها الجلوس مع "وسيم"، ثم فاجأهم برجل يحمل دفترًا بيده قائلًا بفرحة: اتفضل يامولانا.

نظر" وسيم" و"رجاء" في خط مستقيم واحد لهذا الرجل، اندهشت "رجاء" ووضعت يدها الصغيرة على وجهها من الفرحة العارمة التي تكلل وجهها مع خجل بسيط، إنه الشيخ "متولي" المأذون، أما "وسيم" راح يضحك ضحكات عالية من السعادة، حقًّا أمرٌ لم يتوقعْه أحد، ثم ردَّدَ "الشيخ زهدي" بفرحة لعودة "رجاء" إلى صوابها:

- هديّتي لك يا "رجاء"، اقبليها بصدر رحب.

ثم دخلتْ زوجة الشيخ "زهدي" وأخذت "رجاء" مسرعةً إلى غرفتها، فارتدت فستانًا أبيض قد اشتراه "زهدي" لها، ونقابًا أبيض يلفّ وجهها، تكلّله فصوصٌ بيضاء ذهبية.

وبالغرفة المجاورة كان "وسيم" يرتدي بذلته السوداء اللامعة سعيدًا، لم يكن أحدٌ يتوقع زواجهما السريع وبهذه الطريقة، وراح "وسيم" يضع عطرًا برائحته النفاذة، ويخط المشط على شعره الناعم فيتساوى كليًّا.

تقابلَا بنظراتهما السعيدة واتجها إلى الغرفة، انتهى عقد قرانهما بسرعةٍ بالغةٍ وسط احتفالٍ كبيرٍ داخل منزل الشيخ "زهدي"، انتهت الليلة بسعادة تُكَلّل البيت، وذهب "وسيم "و"رجاء" داخل غرفتهما التي احتجزها لهم الشيخ "زهدي".

لأول مرة تجتمع "رجاء"مع "وسيم" في غرفة واحدة دون أن تصرخ بوجهه أو تعترض على باب واحد يغلق عليهما هما الاثنان.

خرج الصباح بنوره ودقات الشيخ "زهدي" تتصارع الواحدة تلو الأخرى على الباب مردداً بلطف:

- صباحٌ سعيدٌ يا أخ، استعدوا للإفطار.

استيقظ "وسيم" ومعه "رجاء" في سرعة بالغة، صافحتها وقبلتها زوجة الشيخ "زهدي" ثم باركت لها وهي تسْرَحُ حولها برائحة البخور التي كلّلت بها رأسها، و تتبعتْ "وسيم" هو أيضًا ومعه الشيخ "زهدي"، فقال "زهدي" عابثًا معهم:

- غريبةٌ زوجتي، في اعتقادها أنّ البخور قبل الإفطار يمنع الحسد.

وراحا يضحكان، ثم استكانت زوجته على الكرسيّ مندسه به مردّدة بضحكاتها:

- سامحك الله.

انتهى الفطور، واتجه "وسيم" لغرفة الاجتماعات ومعه "رجاء"، كان شعورٌ غريب يتملك "رجاء" قبل أن يتملك" وسيم"، وكأنها لم تصدق تلك الحياة التي تأخذ منّا كل شيءٍ وأحيانًا أخرى تعطينا كلّ شيءٍ.

لكن ما أحزنها عدم وجود أهلها أو حتى شقيقها الوحيد "منصور" الذي تُكِنّ له الآن الكراهية بجانبها.

هي سعيدة بعد أن عرف "وسيم" بأنه أول رجل لمسها حقيقةً ولم تمنعه حادثة اعتداء أمن الدولة عليها في شيء بل كانت دليلًا كافيًا له على شجاعتها وبسالتها، فقد رآها أمام عينيه ولم تكذب عليه.

اندسا وهما مطروحان أرضًا في الركن القريب من الشيخ "زهدي" ثم ردّد "زهدي " بانشراح القلب قائلًا:

- هل أنتِ مطمئنة إلى جانب "وسيم"؟

فنظرت إلى "وسيم" وربتت على كفّ يده مبتسمةً مكتفيةً بهزّ رأسها ثم رددت:

- لم ولن أجد سعادة أكثر مما أنا فيها الآن.

ثم وجّه زهدي كلامه لـ"وسيم" قائلًا:

- وأنت يا "وسيم"؟

نظر "وسيم" إلى "رجاء" وقبّل رأسها قائلًا:

- رجاء ملكتي الوحيدة، وأنا أيضًا لم ولن أجد سعادة مثل ما أنا فيها الآن.

ترقّب الشيخ "زهدي" المكان من حوله وتأكد أن كل شيءٍ على ما يرام بعد أن طلب من زوجته أن تغلق باب الغرفة عليهم، مشدّدًا عليها بألا تُدخل أحدًا إلا بأمرٍ منه.

وهمس إليهم بصوت منخفض قائلًا:

- الزعيم موجودٌ بشرم الشيخ، كل تحركاته تصل إلينا.

اندهش "وسيم" لكن لم يقاطعه وراح يتركه حتى ينتهي من حديثه، فاستكمل "زهدي" حديثه قائلًا:

- نعم يا بنتي، "فهمي الخولي"، يقطن فوق سطح منزلكم، في النهاية ورغم هيئته الغامضة عرفنا بطرقنا الخاصة أنه يستطيع دخول منزل الرئيس بعد أن أجروا عليه اختباراتٍ تؤكد أمانته وولاءه كطبّاخ.

لم يتمالك "وسيم" ذاته وراح يتساءل:

- كيف نضمن إخلاصه لنا؟

- لا تقلق، "فهمي" كاتن له ميولٌ للانضمام للجماعة في الفترة القريبة بعد أن وصلت له معلومات تؤكد فساد مبارك، ولن نجد من هو أنسب مني حتى يصرح له بذلك، كنتُ أتفقُ معه بأنْ يصف لنا بالضبط مايقوم به الزعيم خلال الاجتماعات وينقله لنا بالتفاصيل الكاملة.

ثم أخذ يسبّح ويتنهد قائلًا:

- للأسف وصلتنا معلوماتٌ خطيرةٌ قام بها الزعيم في الخفاء، منها تفجير كنيسة القديسَيْن، وأموال مهربة للخارج، وهدايا تمتلكها ورشاوى للسيدة حرم الزعيم، وما خفي كان أعظم.

لمْ تصدق رجاء ما قاله الشيخ "زهدي"، أمّا "وسيم" اندهش من أمر كنيسة القديسيْن.

ثم ردّد "زهدي" بفرح:

- المهم هو اقتراب موعد العملية.

ثم أخرج لوحةً ورقيةً كبيرةً وبدأ يشرح قائلًا:

- هذا مدخل شرم الشيخ، المكان أشبه بمعتقل، مليءٌ بتفتيشات كثيرة، لذلك لن نستطيع الدخول إلى هناك بسهولة، وعلينا أن ننتظر

قدوم الزعيم إلى قصر الرئاسة، سترتدي المكان هناك وحتى الآن محاصر بقوات الجيش.

غدًا هو الموعد المحدد. ستشهد هذا اليوم حشودًا هائلة قادمة من ميدان التحرير وميادين كثيرة.

أنهى الشيخ "زهدي" كلامه بنوع من التوتر، ثم دخلا غرفتهما وأغلقا الباب عليهما، لم يأت النوم إليهما.

انتفضت "رجاء" بعد أن شعرت أن أحدًا يراقبهما وراحت تنظر حولها ثم أسرعت إلى النافذة واضعةً يدها على صدرها محاولةً الاطمئنان مردّدة:

- الحمد لله، هذه أوهام ووساوس الخوف، لأن العملية اقتربت.

ثم ابتسم وراح يقبل يدها بفخرٍ مردّدًا:

- أريدك أن تحلمي اليوم.

ضحكت بصوت عالٍ ضحكاتٍ متوالية لم تستطع أن تتوقف عنها وراحت تقول له مردّدة في خجل:

- أقول لك على سر؟

فابتسم "وسيم" قائلًا:

- تعرفين شيئًا عن الاستشهاد وتخفينه؟

فابتسمت مردّدة:

- لا، هذا سرٌّ كبير.

فاستكان على الفراش، وقالت:

- أنا حلمت بك قبل أن أراك.

فانتفض "وسيم":

- أنتِ حلمتِ بي؟!

فاحمرت خجلًا قائلة:

- أنا قلت حلمت بك؟

فردّ "وسيم" قائلًا:

- نعم. إذن ما هو الحلم؟

فضحكت "رجاء":

- حلمت بشخص يشبه ملامحَك، وطيبة قلبك وجرأتك.

فضحك "وسيم" قائلًا:

- أنا أيضًا حلمت بك.

- كيف؟

- حلمت بفتاة تشبه ملامحك وطيبة قلبك.. أفكارها تشبه أفكاري، تحب الوطن مثلما أنا أحبه. كلما فكرت في أمر الزواج كان عليّ أن أختار من الجماعة من تشبهني.

- لكن هناك شيء مختلف في الحلم عني.

- ما هو؟

obeikandl.com

- أنا لم أكنْ في يومٍ طيبة.

- حقًّا لم تكوني طيبة؟!

- نعم لم أكن طيبةً.

- نهائيًّا؟

- نعم. نهائيًّا.

ثم أخذها وحملها من ذراعها إلى أحضانه قائلًا:

- إذن تعالي وسنرى هذا الأمر بعد.

كان اليوم المنتظر، يوم الاستشهاد، ملامحهم تجمع ما بين الفرحة والخجل والفراق والاشتياق، والحزن والبعد، فتلامست أياديهم واحتضنت واستكانت لفترةٍ طويلةٍ، وراحت "رجاء" تبكي، فجلس "وسيم" على الفراش يمسح دمعاتها ويبثّ بداخلها الشجاعة التي يستمدها دائمًا منها، ثم خرجا من الغرفة بعد أن رتّبا أغراضهما، و"وسيم" يستعدّ للعملية.

وضعتْ يدها على يدهِ فقبلها وعانقها عناقًا ستشهد "رجاء" على إثره فراقًا طويلًا إلى الأبد، هذا ما ترجمته أحاسيسها.

"رجاء "و"وسيم" بالنسبة للشيخ "زهدي" هو الأب الفاضل وهم أبناؤه الذين افتقدهم طيلة سنوات ماضية لم ينجب منها إلا سعادة مع زوجته، أخذهم بالأحضان، كان "وسيم "يبكي بكاءً شديدًا، يبثّ بداخله كلمات تثبته، لم يخشَ "وسيم " أمرَ الاستشهاد، مرّ شريط الذّكريات أمامه، تذكر الجهاد الأفغاني وكيف كان يقوم بذلك مرات كثيرة، تذكر

المرات التي فشل بها، وتذكر أيضًا مشاركته في حركة المقاومة الفلسطينية. تذكر والدته التي راحت حياتها هباءً، من بعدها عاهد نفسه أن يأخذ بثأرها. ويعود من جديد لهذه الجماعات الجهادية في مصر، حتى جاءت اللحظة الآن كما يشعر.

كانت حالة "رجاء" غير مستقرة، كيف توافق على عملية الاستشهاد وهي تعلم أن حبّها للوطن أشد من أيّ عملية أخرى، لَمْ تقتنع "رجاء" أن الاستشهاد هو الحل للخلاص من "مبارك "، بدأت تشعر بحالة غثيان كلما تذكرت أمر استشهاد "وسيم"، تنظر إليه نظرات يأسٍ أرادت أن تبكي، هي تحبه بشدة، لكن عقلها يفكر، يطالبها بالابتعاد عنه، هي لا تريد الاستشهاد، تشعر أن خطأ ما يقدم عليه.

الموت ليس أمرًا صعبًا بل الأصعب هو القدوم عليه ومعرفة موعدٍ محدّدٍ له، احتضنته ودعتْ له بأن يوفقه الله، هي تعلم أنها لن تراه ثانية.

غلّف الصمت المكان، ثم رحل رحيلًا بغير رجعة، يتقدم صوب قصر الرئاسة.

الجو باردٌ برودةً شديدةً، لا يوجد أحدٌ بالقرب من المكان، عدّت ساعة وراء أخرى لتبدأ العملية.

صدرت الأوامر ل- "عباس" من رجال أمن الدولة أن يظلّ تحت حراسة قصر الرئاسة بعدما علم أمن الدولة أنّ عملية تفجيرٍ ستحدث بالمكان وأنّ حشودًا كبيرةً ستقترب إلى هناك.

وبعد ساعة بالضبط، ساعة شهدت أصعب عملية استشهاد، وأقوى تجمعٍ حاشدٍ أمام القصر، تلقى "وسيم" رسالة من "الشيخ زهدي" مع

"حسن الإسلامبولي" الذي كان يبعد خطوات كثيرة عنهم يراقب ما سيحدث وهو يحثّه على الشجاعة والتعقّل والحذر، ويبثّ فيه روح الشهادة.

اقترب "وسيم" من كمين الأمن المركزي وهو يتشهد: "لا إله إلا الله، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر"، تذكّر والدته، تذكر "رجاء"، تذكر حياته الماضية ثم بدأ التنفيذ.

اشتعل المكان بالنيران، وطار كردون الأمن بعيدًا، دخانٌ كثيفٌ، فاقتربت الحشود الغفيرة، قادمة من ميدان التحرير، هتافاتهم واحدة "مش هنمشي هو يمشي"، "مش عايزينك"، "الشعب يريد إسقاط النظام".

وراح "الشيخ زهدي" يصرخ أمام زوجته مردّدًا بغضبٍ شديدٍ و"رجاء" تصرخ:

- حاولت، الاتصال فشل.

توقع أنّ شخصًا ما يسمع صوته فراح يردد بصوت عالٍ وهو يقول أن الرئيس لم يكن موجودًا بالقصر حتى انقطع الخط.

عدّت ساعات والمتظاهرون يزدادون مردّدين: "الشعب يريد إسقاط النظام"، بعد ساعاتٍ خرج نائب الرئيس عمر سليمان قائلًا:

"قرر الرئيس محمد حسني مبارك التنحي عن الحكم".

صرخت أصوات المتظاهرين من الفرحة وهلل الجميع، كانت دموعهم صادقة متوهجة، تتقلب البسمة على شفاههم فتعود من جديد، وأعلام

مصر مرفوعة ترفرف مع أنوار الميدان المتلألئة، وأصوات الطبول متدفقة واحدة تلو الأخرى، بثّت الجزيرة خبرًا عن محاولة اغتيال الرئيس قبل التنحي، وأنّ عمليات جهادية قامت بذلك، وتداخلت مع هذا الخبر أصوات المتظاهرين تصرخ من الفرحة.

قامت قوات أمن الدولة بمداهمة المنزل وتم القبض على "زهدي" وزوجته و"رجاء"، وجاري البحث عن " حسن الإسلامبولي ".

كان "عباس" في الميدان، أصيب بجلطةٍ في المخّ بعد أن سمع خبر القبض على "رجاء" وتَنَحّي الرئيس وترْك عملِه، أما "منصور" فكان حزينًا على ماحدث لشقيقته ولمْ يصدق أيضًا قرار التنحي حتى قطعت أفكاره أصوات الفرحة وهى تكلّل العالم بقرار تنحي الرئيس محمد حسني مبارك على جميع القنوات.

تمَّت

* * *

الحبُّ في يناير روايةٌ تُعيدنا لأجواء يناير، بكل حماسها، بكل خوفها، بكل فوضويتها. يتمايل الوطن بين وحشين.. نظامٌ قديمٌ، وجماعاتٌ متطرفةٌ.

اللغة عند نورهان سلسة، بسيطة، بلا تعقيد أو تكلف، فنقرأ بكل سهولة ويسر بدون أيّ عناء، تمتاز بالوصف الدقيق، والسرد والابتعاد قدر الإمكان عن الجمل التقريرية.

شخصيات نورهان مرسومة بدقة، فنستطيع أن نعرف "وسيم" عندما نراه صدفةً في الشارع، ونتعرف بسهولةٍ على "رجاء" إن قابلناها يومًا، ويمكننا الابتعاد سريعًا عندما يلوح لنا "منصور الأسمر" من بعيد.

الحوار سهلٌ، فصحى تقترب من العامية، وهذا جعلنا نندمج مع الشخصيات ونشعر ناحيتهم بالحميمية.

يمتاز أسلوب نورهان بالتشويق، فما إن نبدأ في قراءة الرواية حتى لا نتركها إلا وقد أتممنا قراءتها.

أحمد سعيد
كاتب وروائيّ مصريّ

obeikandl.com

نبذة عن الكاتبة :

* نورهان عبدالله كاتبة وصحفية عملت بعدة صحف مصرية.

* عملت كناقدة مسرحية بعد تخرجها من كلية الآداب قسم مسرح ..ثم اتجهت للعمل في صحيفة النهار ثم مجلة اجيال السورية ثم عملت بمجلة عين الفنية ثم عملت ببوابة الوفد وموقع صدى البلد و الآن تعمل في موقع مصريون في الكويت.

صفحة الكاتبة على الفيس بوك :

https://www.facebook.com/NourhanAbdallaCom?ref=bookmarks

obeikandl.com

obeikandl.com

عزيزي القارىء

تقوم عملية القراءة على الوعي بالذات واللغة، ولا يتم ذلك دون ثقافة (قرائية) تحاول أن تساهم دار ليان للنشر فيها، في سبيل التقريب بين المؤلف والقارئ. لذلك لست متلقيًا للإبداع الأدبي والفني فحسب، ولا قارئًا لرموز لغوية ذات أبعاد إنسانية فقط، بل أنت (حلقة الوصل).

حلقة تكتمل من خلال قراءة الإبداع؛ لأن الإبداع- في نظرنا- هو المشاركة الفعلية والسامية بين كاتب يبحث عن الحياة من خلال الأحرف، وقارئ مطّلع ومتعدد الرؤى يهفو إلى فنيَّات اللغة ورسالتها الإنسانية. مع إيماننا بأن الكاتب الجيد هو قارئٌ نهم، والقارئ النهم مشروع كاتب جيد في المستقبل القريب، وهذا دورنا وننتظرك عزيزي القارئ لتحول رؤيتك إلى رؤية بين ضفتي كتاب من إنتاج ليان للنشر والتوزيع.

تنطلق رسالتنا إذًا، من خطوة المشاركة بين طرفي الإبداع وجناحيه: المؤلف وأنت.

ولا تكتمل عزيزي القارىء العمليةالإبداعية والقراءة الصحيحة للإنتاج الفكري- بأبعاده الفنية- دون طيفك كقارىء وأنفاسك كناقد وبحثك عن الإبداع كذوَّاق. ولسنا إلا خطوة الرقي الحضاري الأولى، التي تبحث عن الارتقاء بالإنسان العربي وفكره، وتطوير ملكات المبدع والقارئ عبر

تشجيع النصوص الرصينة، ولغتها السليمة الموروثة عن الأجداد والحاملة لأسمى الرسائل الإنسانية.

لنا، وإن فشلنا فعذرنا أننا من أنصار عشق البدايات ودعم أصحاب المواهب الشابة في الخطو نحو النشر في أولى أرهاصتهم الأدبية، ورؤيتنا أن دورنا الرئيسي ينصب على التمهيد المدفعي للكاتب في خطواته الأولى وإقامة العديد من الجسور الصحفية والأدبية والتعريفية بين الكاتب الشاب والوسط الثقافي والقراء ككل.

حلمنا الكبير هو الانتشار الكبير للمواهب الشابة في الأدب المصري والعربي، والباب مفتوح للجميع، وعلى من يرغب في النشر معنا مراسلتنا على النحو التالي:

fathy66666666@yahoo.com

layanpub@yahoo.com

layanpub@gmail.com

فتحي المزين: 056 01282288

obeikandl.com